الفصل الثانــي

التغير الاجتماعي على خلفية المصادر الإسلامية الأساسية
مدخـل نظـري

تمهـيد:

تتناول هذه الدراسة مفهوم التغير الاجتماعي في الفكر الإسلامي في العصر الحديث، مما يتطلب تشكيل رؤية مرجعية مستمدة مباشرة من المصادر الأساسية للفكر الإسلامي (القرآن الكريم والسنة النبوية). فقد اهتم القرآن اهتماماً عظيماً بقضية التغير الاجتماعي في إطار اهتمامه بتفسير حركة التاريخ الإنساني، وعرضه لسنن قيام الحضارات وسقوطها. وبينت نصوص القرآن والسنة النبوية المنهاج السليم للتجديد الحضاري والتحول الاجتماعي المنشود بهدف النهوض بالمجتمع. ولذا شكلت نصوص الوحي الإلهي مرشداً للأسس العامة والسبل المشروعة لإقامة حضارة إنسانية رشيدة على أساس الغاية التي حددها الله للإنسان حين استخلفه في الأرض واستعمره فيها.

وإذا كانت كل نهضة حضارية لا تنبعث إلا بالفكرة الدينية كما يرى مالك بن نبي، وإذا كان تطور الإنسانية هو ما يحدث من نمو في مشاعرها الدينية المسجلة في واقع الأحداث الاجتماعية، مما يجعل الحضارة تجسيداً للفكرة الدينية[1]، فيمكننا القول، بالإضافة إلى ذلك ووفقاً لما ورد في القرآن الكريم، إن كل انتكاسة حضارية أو سقوط مجتمعي إنما يرجع إلى تخلي المجتمع عن المنهج النظري والعملي الذي جاء به الوحي الإلهي، كما يرجع

(1) ابن نبي، مالك. **ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعـية**. ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، 1985م، ص56.

إلى تعطيل سنن الله وابتعاده عن الفطرة الإنسانية في توجيه العلاقات الاجتماعية وتنظيم شؤون الحياة والمجتمع.

والسؤال المطروح في هذا الفصل هو: ما الملامح الأساسية للمنهج الإسلامي في تناول قضية التغير الاجتماعي؟ وكيف يمكن تحديد نموذج للتغير الاجتماعي ينبثق من المرجعية النصية (القرآن والسنة) بصورة مباشرة؟ وعليه يمكن تحليل الرؤى النظرية لتيارات الفكر الإسلامي المختلفة، والكشف عن مدى التزامها بالإطار المرجعي الإسلامي. مع الأخذ في الاعتبار أن هذه التيارات تأثرت بظروف الواقع الاجتماعي المحيط، كما تأثرت بروح العصر الذي ظهرت فيه، مما انعكس على تأويلها للنصوص التي استعانت بها في تفسيرها لظاهرة التغير الاجتماعي.

أولاً: الإطار المرجعي للدراسة

1. يتميز الفكر الإسلامي بأسلوب خاص يعتمد على المنهج القرآني المرتبط بالغايات والأهداف الإسلامية الأساسية التي حددها القرآن، ومن ثم فالبحث في الفكر الاجتماعي الإسلامي قد يواجه ببعض الإشكاليات المنهجية عند استخدام المداخل الغربية في تحليل والظواهر الاجتماعية التي يتناولها الفكر الإسلامي وتفسيرها. ولذلك فإن أحد أوجه القصور في دراسات بعض الباحثين للفكر الإسلامي -سواء من الغربيين أو المسلمين- يبدو في عدم الاعتراف بوجود منظومة فكرية إسلامية أو عالم فكري مصطلحي إسلامي. وبعض الدراسات التي أسست نظريات حول بعض القضايا الاجتماعية والسياسية في المجتمعات الإسلامية، تجاهلت عمل النص في التاريخ، أي تجاهلت أن مصادر الفكر الإسلامي: قرآن وسنة وإجماع، وأن الإجماع شرع من الشرع، وهو عبارة عن التجربة التاريخية للجماعة والتي يتواصل فيها الديني والسياسي والاجتماعي[2]. هذه المغالطة بجلاء عند "هاملتون جيب"

(2) السيد، رضوان. **الأمة والجماعة والسلطة: دراسات في الفكر السياسي وكذلك الاجتماعي العربي الإسلامي**، بيروت: دار اقرأ، ط2، 1986م، ص14-15

وأتباعه، الذين لا يعترفون بوجود نسق فكري إسلامي أو بنية مفاهيمية إسلامية، حيث رأى "جيب" أن التعريفات والتعبيرات القرآنية التي تشكل منطلق الفكر الإسلامي، ليست في ذاتها منظومة منهجية، بل هي إثبات لفظي مباشر لبعض المواقف المباشرة والأفكار التي تدرك إدراكاً حدسياً، وقد آل أمر هذه المواقف والإثباتات إلى أن تستقر في القرآن وتتحلى بسلطة قصوى حتى غدت تحقق وظيفة القواعد الرئيسية التي ينطلق منها الفكر الديني لدى المسلمين بوجه عام[3].

ويوضح ذلك تجاهل جيب للخصائص المميزة للنصوص القرآنية التي لا تمثل كلها إثباتاً لفظياً مباشراً، بل تتسم بقدر كبير من المرونة والقدرة على التفاعل مع الواقع، مما مكن المفكرون والعلماء من بناء منظومة منهجية من خلال معطيات النص القرآني. فقد أتاح النص القرآني للعلماء أن يستخدموا الاستدلال، فاستخدم فقهاء الحنفية القياس، واستعان بعضهم بالاستقراء، أو الاستدلال العلمي القائم على التحقق التجريبي الذي أسس لمنهج البحث في العلوم الطبيعية بعد ذلك. هذا إلى جانب إقرار بعض العلماء بالتأويل كمنهج عقلي، بمعنى صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله، إذا كان موافقاً للكتاب والسنة، وحدد الفقهاء عدة شروط للتأويل حتى يكون ملتزماً ومقبولاً، بما يتفق مع القاعدة الفقهية (عدم تعارض الشرع والعقل)[4][5].

2. وعلى ذلك، فإن الفكر الإسلامي يعتمد على عدة مصادر للمعرفة، المصدر الأول هو الوحي (الكتاب والسنة) أما المصدر الثاني فهو الوجود، وعندما يتناول الفكر الإسلامي قضايا الوجود والكون والعلاقات الإنسانية، والقواعد الأساسية في السلوك والأخلاق وغيرها من القضايا الإنسانية

---

(3) جيب، هاملتون. **بنية الفكر الديني في الإسلام**، تعريب وتصدير عادل عوا، دمشق: مطبعة جامعة دمشق، بدون تاريخ، ص60.

(4) عبد القادر، محمد أحمد: **الفكر الإسلامي بين الاعتدال والغلو**، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1994م، ص211-214.

(5) العلواني، طه جابر. **ابن تيمية وإسلامية المعرفة**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1994م، ص29-31.

والاجتماعية، لا ينطلق من الفرض العقلي المجرد، بل يستند أولاً إلى الوحي، ثم إذا تعلق الأمر بقضايا عامة لم يتناولها النص، فهي قضايا اجتهادية، ولكن يتم الاعتماد على قواعد الشرع العامة وتوجيهاته وغاياته ومقاصده عند استخدام مناهج الحس والتجربة والعقل(6). ومعنى ذلك أن المنظور الإسلامي يعتمد على تعدد وشمول سبل الوعي والمعرفة، وذلك أمر تقتضيه الشمولية الإسلامية، وشموله لكل ميادين المعرفة وجميع عوالم الحياة، الأولى منها والآخرة... الظاهر منها والباطن... الواقع منها والمثال... المادي منها والمعنوي... الدنيوي منها والديني... العقلي منها والنقلي... الإلهي منها والبشري(7).

والحقيقة أن القرآن الكريم يعد المصدر المقياس لكل تفكير يراد وصفه بالإسلامي*(8). فالفكر الإسلامي بشتى تياراته ومختلف فروعه، يستند على مدخل أساس يتحدد في المنهجية المعرفية (القائمة على القرآن الكريم)، حيث تعنى المنهجية الضوابط اللازمة للفكر الإنساني، والتي تستقي من إطار مرجعي يحدد طرق إنتاج الأفكار وتوليدها واختبارها، وتخرج المنهجية العقل الإنساني من حالة التوليد الذاتي للمفاهيم، القائم على التأملات والخواطر الانتقائية إلى إطار مرجعي يرجع إليه من خلال منهج يمثل خلاصة لقوانين وسنن تم رصدها وملاحظتها، ثم تحولت إلى نظريات وقواعد ليصبح النسق الناظم لها إطاراً مرجعياً يضبط حركتها فلا تتضارب ولا تضاد ولا تتنافى ولا ينقض بعضها بعضاً(9).

---

(6) العلواني، طه جابر. **ابن تيمية وإسلامية المعرفة**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1994م، ص29-31.

(7) عمارة، محمد. **معالم المنهج الإسلامي**، القاهرة: دار الشروق، ط1، 1991م، ص53.

(*) اتفق جميع الفقهاء والأئمة في كل العصور على اعتبار القرآن الكريم والسنة النبوية وإجماع الصحابة المصادر الأساسية للفقه الإسلامي.

(8) رمزي، عبد القادر هاشم. **النظرية الإسلامية في فلسفة الدراسات الاجتماعية والتربوية**، الدوحة: دار الثقافة، ط1، 1984م، ص36-39.

(9) العلواني، طه جابر. **ابن تيمية وإسلامية المعرفة**، مرجع سابق، ص64،63.

obeikandi.com

3. ولهذا يتسم الفكر الإسلامي بملامح محددة نابعة من الملامح الأساسية للمنهج الإسلامي العام التي يجب أن تؤخذ عند تحليل الفكر الإسلامي الحديث في تناوله لقضية التغير الاجتماعي معياراً لمدى التزامه بالإطار المرجعي الإسلامي. والواقع أن هذا المنهج الإسلامي العام يستمد قواعده من المنهج القرآني في التنزيل، ومن الأسلوب القرآني في الاستدلال والجدل والحوار العقلي. ولذلك تجدر الإشارة إلى أهم ملامح المنهج القرآني باعتباره المدخل الملائم لتحليل الفكر الإسلامي الحديث ونقده. وفيما يلي عرضٌ لذلك.

1- منهج التنزيل القرآني وارتباطه بتغير الواقع

نزل القرآن الكريم مصدقاً لما سبق من الكتب السماويّة، ومهيمناً عليها، وجعله الله خاتمها وأشملها، فإن نسخ حكماً فيها كان منسوخاً، وإن أقره كان محكماً(10). وقد نقل إلينا القرآن بطريق التواتر. وهذا النقل المتواتر يفيد القطع بعدم تحريف نصوص القرآن أو تبديلها*(11).

وتأتى السنة النبوية مكملة للتشريع القرآني، ومفسرة له، وهي المصدر الثاني للتشريع، وتعنى السنة النبوية ما روى عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، ومن هنا يدخل في السنة ما يكون للتشريع وهو الغالب، وما قد لا يكون للتشريع وهو قليل(12). وقد قسمت السنة النبوية إلى ثلاثة أبواب: سنة

---

(10) حمزة، محمد. **دراسات الأحكام والنسخ في القرآن الكريم**، دمشق: دار قتبة، ط1، ب. ت، ص88.

(*) يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9]. وقد أقر بهذا معظم المستشرقين، ويشير ف. م انجر M.F Unger إلى أن القرآن الكريم وصل إلينا دون تحريف، ولم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ المتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة، مما يعد أكبر حجة على صحة النص الموجود معنا.
Unger, M. F. *Unger's Bible Dictionary*. Chicago: Moody Press, 1970, p. 144.

(11) مهران، محمد بيومي. **دراسات تاريخية من القرآن الكريم**، بيروت: دار النهضة العربية، بيروت، ص7.

(12) القرضاوي، يوسف. **السنة مصدر للمعرفة والحضارة**، الدوحة: مركز بحوث السنة والسيرة، جامعة قطر، 1995م، ص59

آتاه بها جبريل عليه السلام، وهي تدخل في إطار التشريع، والثانية سنة أباح الله له أن يسنها وأمره باستعمال رأيه فيها، فله أن يترخص فيها لمن شاء على حسب العلة والعذر، وتدخل في إطار التشريع الخاص لظرف طارئ أو لحالة معينة، والثالثة تشمل ما سنه الرسول ﷺ لنا تأديباً، فإن نحن فعلناه كانت الفضيلة في ذلك، وإن نحن تركناه، فلا جناح علينا إن شاء الله[13].

وكما هو مقرر في علم أصول الفقه، على اختلاف المذاهب، فإن السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، بعد القرآن الكريم، وهي مصدر للمعرفة الدينية والمعرفة الإنسانية والاجتماعية[14]. ذلك فإن الجزء الأكبر من السنة النبوية يدخل في نطاق الوحي وينطبق عليه نهج التنزيل القرآني نفسه. وكما كان نزول القرآن الكريم منجماً، أي مفرقاً حسب الوقائع والأحداث والمناسبات[15]. السنة كذلك تتعلق بمواقف وأحداث، فكانت أفعال النبي ﷺ الدنيوية والدينية واجبة الاقتداء والاتباع.

ويمكن تحديد ثلاثة ملامح أساسية لمنهج التنزيل القرآني:

أ - التدرج والمرحلية في نزول الوحي

ارتبط التدرج في التنزيل بعاملين:

الأول يرتبط بخصوصية الوقائع التي نزلت فيها الأحكام. فكان الوحي ينزل بالحكم الحق ولا يتبع الهوى*. ومن ثم فقد أبقت الشريعة الإسلامية على بعض الممارسات القائمة بعد تنقيتها من بدع أهل الشرك ورواسب الجاهلية التي شوهتها وخرجت بها عن الأصل الحنفي. ومن هنا لم تكن أحكام الشريعة ومبادئ الدين متغيرة تبعا لمتغيرات المجتمع. فمن الضوابط

---

(13) المرجع السابق، ص21-29.

(14) المرجع السابق، ص7.

(15) يحيى، ياسين محمد. **المجتمع الإسلامي في ضوء فقه الكتاب والسنة**، الإسكندرية: منشأة المعارف، 1984م، ص 14.

(*) ﴿...فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [ص: 26].

الشرعية أن التغير في الوقائع الاجتماعية المخالفة للشريعة لا اعتبار له، ولو عم الناس جميعاً وصار عرفاً ثابتاً، فالشريعة حاكمة على الواقع في كل صوره وليست محكومة به[16].

والمبادئ الإسلامية رغم ثباتها، كانت هي المحرك للتغير الاجتماعي، بما يزيل الفساد ويصحح أوضاع المجتمع، وما أسباب النزول إلا الظروف التي أثارت المشكلات الاجتماعية، وأدت إلى رفعها إلى الرسول للفصل في شأنها. غير أن كثيراً من الآيات نزلت لأحكام لم يقدم أصحاب كتب أسباب النزول عنها أخباراً، من ذلك وضع الفقراء في المجتمع الجاهلي المادي الذي لا يشعر بالمسؤولية إزاء الفقراء والمرضى والضعفاء. وهذا الوضع كان سبباً في نزول آيات كثيرة دعت إلى العطف على الفقراء وتقديم الصدقات لهم، ثم فرضت للفقير حقاً معلوماً في مال الغنى، حتى أصبحت الزكاة أحد الأركان التي بُني عليها الإسلام[17].

أما العامل الثاني الذي اعتمد عليه التدرج في التنزيل القرآني، فقد كان يتعلق بمرحلية التشريع، فكانت العبادات سابقة زمنياً للأحكام. حيث نظم التشريع أولاً العلاقة بين الفرد وربه، متمثلا في الصلاة، ثم نظمت العلاقات بين الأفراد بعضهم ببعض[18]. وذلك للاعتبارات الاجتماعية التي أولاها الوحي أهمية قصوى. حيث يميل المجتمع نحو المحافظة على تراث الماضي الثقافي ويتمسك بالأعراف والتقاليد، مما يفرض أسلوب التدرج في التغيير الاجتماعي. ولهذا اقتضى تطور التشريع القرآني في بناء المجتمع الإسلامي أن تفرض الزكاة بعد الصلاة، ولكون الزكاة عبادة تستهدف تماسك المجتمع وتقوية الدعائم والروابط بين الأفراد، جاء التكليف بها بعد الهجرة[19] جاء

---

(16) منسي، محمد قاسم. "تغير الظروف وأثره في اختلاف أحكام الشريعة"، رسالة دكتوراة "غير منشورة"، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1989م، ص513.

(17) مجمع البحوث الإسلامية. **التوجيه الاجتماعي في الإسلام**، القاهرة: المتحدون العرب للتجارة، 1972م، ص167.

(18) انظر: البهي، محمد. **منهج القرآن في تطوير المجتمع**، القاهرة: مكتبة وهبة، ط2، 1995م، ص12.

(19) المرجع السابق، ص25.

الصوم مقترناً بالزكاة أو بعدها بقليل، حيث استهدف تصفية النفوس من الحقد وتزكيتها وتطهيرها من الأنانية والمادية، من خلال تحمل الحرمان من المتع المادية[20]. ولذلك كان التلازم بين الصوم والزكاة، يهدف إلى تغيير الإنسان الفرد تغييراً نفسياً من خلال الصوم، حتى يتم تقبل الزكاة بسهولة حيث تستهدف الزكاة تغيير الإنسان وتحويله إلى عضو مسؤول في المجتمع.

ومن هنا كان تغيير الفرد مقترناً بتغيير المجتمع، وعلى ذلك شكلت فريضة الزكاة أحد الوسائل التنظيمية التنموية للمجتمع، ومن ثم كان هذا التنظيم مرتبطاً بقيام المجتمع المسلم أولاً، ولذلك تأخرت الزكاة إلى ما بعد الهجرة. أما عبادة الحج فقد تأخرت حتى أصبح المسلمون (الأنصار والمهاجرون) قوة ملحوظة بالمدينة، تستطيع أن تشق ش طريقها إلى مكة لأداء الفريضة. ومن ثم جاء حكم أدائها مشروطاً بالاستطاعة -المادية والصحية- وتدرج التشريع في التكليف بالحج في ثلاث سور مدنية، ولم يأت مرة واحدة[21].

وكما نزل التشريع في العبادات متدرجاً نظراً للظروف الاجتماعية القائمة، فإن تشريع أحكام المعاملات جاء أيضاً متدرجاً، ومتأخراً عن العبادات في المرحلة المدنية، وإن تقدمت بعض إشارات وتلميحات في المرحلة المكية تعد مقدمات لما جاء من أحكام بعد ذلك في سور مدنية. حيث اكتفى التشريع في العهد المكي بإثارة نوازع الكراهية والنفور من الأمور التي ستحرمها الشريعة في المرحلة المدنية[22].

وإذا كان التدرج في التشريع قد انتهى باكتمال نزول الوحي، فقد ظل التدرج في التطبيق قائماً، حتى يكون التغيير مرحلياً موافقاً للفطرة الإنسانية. يقول ابن تيمية: (إن الله جعل دينه ثلاث درجات: إسلام ثم إيمان ثم إحسان). . . ولما بعث الرسول ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني

---

(20) المرجع السابق، ص25.
(21) المرجع السابق، ص28.
(22) منسي، محمد قاسم. **تغير الظروف**، مرجع سابق، ص97.

رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فخذ منهم، وتوق كرائم أموالهم»... رواه البخاري ومسلم(23). ويشير ذلك إلى اعتماد المنهج الإسلامي على التدرج والمرحلية كمبدأ ثابت في عملية التغير الاجتماعي في كل زمان ومكان.

ب - النسخ أو تبديل الأحكام*

النسخ هو رفع حكم شرعي بدليل شرعي(24)، بمعنى تبديل الحكم وتغييره، أي رفع الحكم بالنص بعد أن يكون ثباتاً. ويرى ابن حزم أن النسخ بيان انتهاء زمان الأمر الأول فيما لا يتكرر أو ما علق بوقت ما، فإذا خرج ذلك الوقت أو أدى ذلك الفعل، فليس ذلك نسخاً، والمنسوخ عمل مأمور به في وقت ما، وقد سبق علم الله أنه سبحانه سيحيلنا عنه إلى غيره في وقت آخر(25).

على أن النسخ في القرآن الكريم اختص فقط بالأحكام، في الأمر والنهي، والحدود والعقوبات وفي أحكام الدنيا. ولا يكون النسخ في صفات الله ولا في الأخبار(26)** وقد ذكر السيوطي أن النسخ شُرع لحكم عديدة

---

(23) ابن تيمية، تقي الدين أحمد. **مجموعة فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، جمع وترتيب عبد الرحمن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، دار الرحمة، المجلد العشرون، ب. ت، ص7.

(*) جاء ذكر النسخ في القرآن الكريم بلفظه في سورة البقرة: 6، في حين تم ذكر النسخ بمعنى (المحو) في آيتين، الرعد: 39، النحل: 101.

(24) حمزة، محمد. **دراسات الأحكام والنسخ**، مرجع سابق، ص13.

(25) المرجع السابق، ص51-54.

(26) المحاسبي، الحارث بن أسد. **العقل وفهم القرآن**، تحقيق حسين القوتلي، بيروت: دار الكندي، ط3، 1982م، ص356-360.

(**) اختلف العلماء في عدد الآيات المنسوخة في القرآن الكريم، فقد حصرهم السيوطي في عشرين آية، بينما حصر محمد حمزة تسع آيات فقط. ومن بين الآيات المختلف عليها الآية الخامسة في سورة التوبة، المعروفة بآية السيف، وقد رأى الإمام الرازي أن =

منها التيسير على الأمة ومراعاة مصالحها، وتذكيرها بالنعمة، نعمة رفع المشقة بما هو الغالب في النسخ من التخفيف، وتهذيب النفوس إذا كان الحكم الثاني أشق[27]. وعموماً يمثل النسخ أحكاماً خاصة ترتبط بظروف محددة، ولكن أكثر الأحكام التي جاءت في القرآن والسنة النبوية تتصف بالعموم والثبات. وهي الأحكام التي وردت في الآيات المحكمات التي توصف بأم الكتاب*، وهى محكمات أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد، وذلك خلاف المتشابهات التي تحتمل دلالتها موافقة المحكم وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ أو التركيب أو من حيث المراد. ومن بين المتشابهات الآيات المنسوخة[28].

وهكذا يؤسس النسخ قاعدة شرعية تتلخص في أن التدابير التي تتطلبها مصالح الناس في زمن ما إذا لم تحقق الغرض منها في زمن آخر بسبب تغير الظروف، فإنه لا مانع شرعاً من استحداث تدابير جديدة تلائم الظروف الجديدة، على أن تكون موافقة لمقاصد الشريعة في تحقيق مصالح الناس، سواء بجلب المصلحة أو دفع المفسدة[29]. وعلى ذلك يتأسس المنهج القرآني في تبديل الأحكام على عدم التعارض أو التناقض مع أصول ومبادئ الشريعة الثابتة.

جـ - الاستثناء والأحكام المعلقة

أجمع جمهور العلماء على أن نزول الآيات في أسباب خاصة، لا يعنى

= هذه الآية نسخت كل الآيات التي تبدأ بقوله تعالى (فأعرض). ولكن كثيراً من العلماء عارضوا ذلك الرأي، ورأوا أن آية السيف لا تنسخ العفو والصفح لأنه خلق إسلامي رفيع لا يجوز نسخه. **لمزيد من التفاصيل** - المرجع السابق، ص 85 ومحمد حمزة. **دراسات الأحكام والنسخ**، مرجع سابق، ص87.

(27) السيوطي، جلال الدين البابي الحلبي. **الإتقان في علوم القرآن**، ج2، بدون ناشر، 1978م، ص70-85.

(*) ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ [آل عِمرَان: 7].

(28) ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**. مرجع سابق، ج1، ص450.

(29) منسي، محمد قاسم. **تغير الظروف**، مرجع سابق، ص516.

obeikandi.com

خصوصية التنزيل على الواقعة ذاتها فقط. فالآيات التي نزلت في أسباب خاصة (مثل آيات اللعان والقذف والظهار والسرقة وغيرها) اتفق العلماء على تعديتها إلى غير أسبابها بدلالة النص نفسه[30]. ويعنى ذلك أن نزول الآيات لأسباب خاصة لا يدخل ضمن الاستثناءات التي حددها الشرع*.

وقد وجد "الاستثناء" أو الأحكام الاستثنائية في حياة الرسول ﷺ وهي نوعان:

النوع الأول اختص به الرسول ﷺ وحده، فهي أمور لا تطبق على أحد غيره، سواء بالإباحة أو التحريم أو الفرض[31]**. والنوع الثاني من الاستثناءات يخضع للقاعدة الشرعية: الضرورات تبيح المحظورات، وحددت الشريعة لهذه الضرورات ضوابط معينة لكي تكون موافقة لمقاصد الشريعة في حالات خاصة مثل الجوع والسفر والإكراه والدفاع الشرعي عن النفس[32]. وقد كان لهذه الاستثناءات دور في تيسير أحكام الشريعة في واقع متغير

---

(30) الآمدي، على بن محمد. **الإحكام في أصول الأحكام**، ج2، مكتبة ومطبعة صبيح، القاهرة، 1968م، ص85.

(*) اتفق المفسرون على وجود آيات كانت تنزل في أكثر من حدث، وأكثر من مرة تذكيراً من الله لعباده. مثل الآية الكريمة ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النّحل: 126] وقد نزلت على النبي يوم أحد، وقد روى البخاري عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ حينما وقف أمام عمه حمزة بعد أن استشهد ومُثل به، فقال لأمثلن بسبعين منهم مكانك، فنزل جبريل فتلا عليه ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ...﴾ [النّحل: 126])، ويقال إنّها انزلت مرة أخرى يوم فتح مكة فيما روى الترمزي والحاكم عن ابن عباس، وقيل إنّها نزلت ثلاث مرات.

انظر: الأندلسى، أبو يحيى محمد بن صمادح النجيب: **تفسير الطبري** "مختصر"، مذيلاً بكتاب لباب العقول في أسباب النزول للسيوطي، مكتبة مصر، القاهرة، 1409هـ، ص538.

(31) منسى، محمد قاسم. **تغير الظروف**، مرجع سابق، ص63.

(**) المثال على ذلك إباحة الزواج بأكثر من أربع، والزواج بدون صداق، وهى أمور لا تجوز لأحد غيره، وكذلك تحريم الزكاة عليه وعلى آل البيت، وألا يورث بعد وفاته. ومن الفروض التى اختص بها الرسول فرض التهجد وقيام الليل. انظر: المرجع السابق، ص63-64.

(32) المرجع السابق، ص120-122.

obeikandi.com

معرض لظروف طارئة تستلزم التجاوز عن بعض الأحكام لبعض الوقت دون تعدٍ أو تطاول أو إسقاط لمبادئ الشريعة وأصولها عن قصد أو إنكار.

أما الأحكام المعلقة، فهي أحكام يتوقف العمل بها إلى أن توجد الأسباب والظروف المشابهة لوقت نزول الحكم، وتتحقق المصالح المنوطة به، مثل حكم الزكاة للمؤلفة قلوبهم، وأحكام الرق والتسري، فليس هذا من باب إلغاء النص، بل تأجيل العمل به[33].

ويمكن القول إن التدرج في التنزيل بالإضافة للنسخ والأحكام المعلقة والاستثناءات، كلها تشكل آليات للتغير الاجتماعي. حيث تهدف إلى تحقيق المصالح ورفع المفاسد، ومن ثم تلائم سنة التغير الاجتماعي وتتوافق مع الخصوصية الاجتماعية في كل زمان ومكان. وعلى ذلك جاء منهج التنزيل القرآني موافقاً لمقاصد الشرع.

2 - أسلوب الوحي وتأسيس المنهج العلمي

يقدم القرآن الكريم نصوصاً تدخل في مسائل الإيمان التي ينبغي أن يلتزم بها المسلم. ولكن الوحي لا يناقض العقل، فقد اعتمد النص القرآني على أسلوب معجز متفرد، يتضح في الفروق العميقة بين أداء القرآن وإقناعه وبين أسلوب الفلسفات والمنطق السفسطائي[34]. فلا ينبع منهاج القرآن إلا من اليقين، أما المنطق الفلسفي اليوناني فهو يقوم على المنطق الصوري الذي لا يهتم إلا بصورة القياس من غير بيان صحته أو فساده[35]. ولهذا استطاع الفكر الإسلامي أن يستعين بقواعد المنهج القرآني، في صياغة قواعد المنهج العلمي التي ساهمت في تطوير المعرفة العلمية في العلوم الطبيعية والإنسانية. حيث أشار القرآن الكريم إلى كثير من قواعد المنهج التي كانت بلا شك المرتكزات

---

(33) المرجع السابق، ص65.

(34) الجندي، أنور. **نحو بناء منهج البدائل الإسلامية**، القاهرة: دار الاعتصام، 1989م، ص71.

(35) ابن تيمية، تقي الدين أحمد. **الرد على المنطقيين**، تحقيق عبد الصمد شرف الدين الكتبي النروَال، لاهور. **إدارة ترجمان السنة**، 1976، ص252.

الرئيسة للعلماء المسلمين الذين تكلموا بعد ذلك في هذا الموضوع[36].

ويتضح هذا المنهج القرآني في الأسلوب الذي اتبعه الوحي في بيان العقيدة إذ لم يكن بياناً إخبارياً من كل الوجوه، بل فيه الأدلة المنتجة يقيناً، وفيه الحث على النظر، وتوجيه العقول إلى الكون... فما في القرآن ليس خبراً مجرداً، بل هو دليل عقلي مستقيم للمتأمل والمستبصر[37]. وكما يقول السيوطي: (يشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة تقسيم وتحذير تبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به، ولكن أورده على عادات العرب، دون دقائق طرق المتكلمين، ذلك لأن الله لم يرسل رسولاً إلا بلسان قومه)[38]. لكن البراهين والأدلة القرآنية تختلف عن البرهان المنطقي عند اليونان، فكما يقول ابن تيمية: (الأدلة القرآنية ليست كالأدلة القياسية الكلية التي يخصها باسم "البرهان" أهل المنطق*، والتي لا تدل إلا على أمر كلي، بل هي أدلة جزئية واقعية سماها الله آيات، والآيات هي الدلائل على الخالق...)[39].

---

(36) عطية، جمال الدين. **علم أصول الفقه والعلوم الاجتماعية**، "سمنار منشور"، الدوحة: جامعة قطر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1988م، ص4-6.

(37) أبو زهرة، محمد. **ابن تيمية: حياته وعصره وآراؤه الفقهية**، مرجع سابق، ص212.

(38) السيوطي، جلال الدين. **الإتقان**، مرجع سابق، ص172.

(*) عارض بن تيمية أهل المنطق في تفسير (الحكمة والموعظة والجدل) الواردة في الآية الكريمة (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن...). فرفض قولهم إنها تماثل القياس (البرهاني والخطابي والجدلي) كما أراده فلاسفة اليونان، حيث قالوا إن البرهان ما كانت مواده يقينية وهى التي يجب قبولها، أما الخطاب فمواده هي المشهورات التي تصلح لخطاب الجمهور سواء كانت علمية أو ظنية، والجدل هو الذي مواده ما يسلمها المجادل سواء كانت علمية أوظنية، مشهورة أو غير مشهورة، وبناءً على ذلك رتبوا الأساليب الثلاثة فجعلوا أعظمهم البرهاني ثم الخطابي ثم الجدلي. في حين رأى ابن تيمية، خلافاً لذلك، أن المجادلة تكون بعلم كما أن الحكمة بعلم. راجع: بن تيمية، تقي الدين أحمد. **الرد على المنطقيين**، مرجع سابق، ص468، 439.

(39) ابن تيمية، تقي الدين أحمد. **درء تعارض العقل والنقل**، إعداد محمد السيد الجليند، تقريب التراث، القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط1، 1988م، ص191.

وبذلك يعتمد الاستدلال في القرآن على الآيات التي تؤكد ضرورة التلازم المطلوب بين الدليل ومدلوله. وبذلك تختلف عن الدليل الظني، فالآية أو البرهان لا تكون إلا يقيناً[40]. ولهذا سمِّي القياس القرآني القائم على الاستدلال بالآيات (قياس الأولى)، وهو وسيلة الأنبياء جميعاً في الاستدلال على وجود الله بذكر آياته، والأنبياء لم يستعملوا (قياس شمول) تستوي أفراده، ولا قياس تمثيل محض، فإن الرب تعالى لا مثل له[41].

وقد استخدم القرآن الكريم القياس من خلال الجمع بين المتماثلين والفرق بين المختلفين، والأول يسمى قياس الطرد، والثاني قياس العكس[42]. وجعل القرآن القياس مكملاً للاستقراء، والاستقراء في القرآن يشمل كل ما يقع في الكون وفي داخل النفس، وأيضاً في مجرى التاريخ، حيث يطالب القرآن باستقراء الواقع وجزئياته، ولا يكتفي بالاستقراء عند حد الملاحظة وتحليل الظواهر فقط، بل لابد من مرحلة القياس وهي ما عبر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: 2]. والاعتبار هنا هو استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه، وهذا هو القياس في القرآن الكريم[43].

وعلى ذلك يمثل القياس في القرآن هدف العملية الاستقرائية التي تبدأ بالملاحظة والتجربة ثم التعميم. ولذلك فالاستقراء ليس تفكيراً قائماً بذاته، لأنه ليس إلا وسيلة تمهد للتفكير القياسي العقلي مثل استنباط القاعدة العامة عن طريق ملاحظة الأمور الجزئية[44]. وقد استخدم القرآن الكريم وسائل أخرى مثل (الجدل العقلي)* الذي يعد أداة منهجية اعتمدها القرآن، مع تأكيده

---

(40) المرجع السابق، ص191.

(41) ابن تيمية. **الرد على المنطقيين**، مرجع سابق، ص150.

(42) ابن تيمية. **مجموعة فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، مرجع سابق، المجلد العشرون، ص504-505.

(43) إسماعيل، فاطمة إسماعيل محمد. **القرآن والنظر العقلي**، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 2000م، ص129.

(44) المرجع السابق، ص 129.

(*) استخدم القرآن الكريم الجدل بمعنى المحاورة والمحاججة والمراجعة والمفاوضة في سبيل المنازعة لإلزام الخصم. =

أن الوحي وسيلة للعلم*، والتنبيه إلى محدودية العقل البشرى في إدراك كل حقائق الحياة والكون. إلا أن القرآن أعطى للعقل قيمة كبيرة كأداة معرفية. وليس مصدراً للمعرفة، فنفى بذلك ما ادعاه بعض السابقين من أن (العقل معرفة نظمها الله ووضعها في عباده يزيد ويتسع بالعلم المكتسب الدال على المنافع والمضار)[45]. وهو التصور الذي يتفق إلى حد كبير مع ما قاله العلمانيون الذين رفضوا فكرة تكامل الوحي والعقل، باعتبار ذلك (افتراضاً خطيراً يحرم العلم من أداة مهمة وهى العقل حينما يقال إن العقل رغم كل مكانته وإمكاناته يظل محدوداً جزئياً يعتمد على الاستقراء وتراكمات المعرفة والخبرة لإدراك مسيرته)[46].

لكن القرآن يؤكد على تكامل الوحي والعقل، موضحاً عدم قدرة العقل على إدراك الحقيقة كلها بشكل مطلق إلا من خلال الوحي. وبناء على ذلك حدد القرآن قواعد وضوابط الجدل العقلي، وهي القواعد التي استخدمها القرآن في حواره مع المخالفين. والتي تحددت في عدة شروط: أن يكون بالتي هي أحسن، أي يكون بأحسن الأدلة، وقيل بالإصغاء إلى شبههم والرفق بهم في دحضها، وأن يكون الجدل بالحجة البالغة، أي بالأدلة الظاهرة والقاطعة[47].

وثمة توجيه قرآني لاستخدام منهج الجدل العلمي أداة للوعي لا تتناقض

= انظر: ابن نجم ابن الحنبلي، ناصح الدين عبد الرحمن. **كتاب استخراج الجدال من القرآن**، تحقيق "زاهر عواض الألمعي"، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1980م، ص8.

(*) يتضح ذلك في قول الله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العَلَق: 5]. وفي قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النِّسَاء: 113]. كما يؤكد القرآن أن العقل ليس مصدراً للمعرفة ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا...﴾ [لقمَان: 34].

(45) المحاسبي، الحارث بن أسد. **العقل وفهم القرآن**، تحقيق حسين القوتلي، بيروت: دار الكندي، ط3، 1982م، ص205.

(46) على، حيدر إبراهيم. ملاحظات في علم الاجتماع الديني، (في) عبد الباسط عبد المعطي. **ندوة الدين في المجتمع العربي**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1990م، ص49.

(47) ابن نجم ابن الحنبلي. **كتاب استخراج الجدال من القرآن**، مرجع سابق، ص52-53.

obeikandi.com

مع الوحي، فالجدل العلمي يشكل أداة للنظر والفطنة وحب الاستطلاع، مما يفيد في تأسيس الإيمان بالعقيدة على الاقتناع العميق وجدانياً وعقلياً، حيث الارتباط بين حصول اليقين القلبي والاقتناع العقلي هو أساس العقيدة. وفي ذلك يقول ابن حزم الأندلسي: (الاستدلال العقلي هو الذي يفيد اليقين متى سلمت مقدماته وانتهت في نتائجها إلى الحس السليم أو الضرورة المفيدة للتيقن، بخلاف الدليل النقلي، فإنه لا يمكن أن يفيد اليقين وحده). فالقرآن الكريم حض على المجادلة بالحق، وأمر بطلب البرهان، وبذل صح أن طلب الحجة هو سبيل الله عز وجل[48].

استناداً إلى ما تقدم يمكن القول إن هناك عدة إمكانيات يمكن أن يوفرها الوحي للمعرفة الاجتماعية تتمثل في توثيق المصادر المعرفية لعلم الاجتماع، وفي تصحيح أخطاء متيافيزيقا علم الاجتماع، وأخيراً في صياغة القوانين الاجتماعية[49]. ولذا فإن هناك من يرى أن ما يميز علم الاجتماع الإسلامي عن غيره هو أساسه المنهجي وليس أساسه الموضوعي الذي يركز على موضوع معين يرتبط بالإسلام بشكل من الأشكال[50]. وبهذا يجعل الفكر الاجتماعي الإسلامي فكراً حياً، وليس فكراً مجرداً، فهو فكر فاعل متفاعل مبنى على علم يقيني يأتي من خلال الوحي، وفي الوقت نفسه يرتبط بالخبرات العملية لواقع الأمة.

ويعني ذلك أن المدخل الإسلامي في دراسة التغير الاجتماعي يعتمد على قاعدتين:

القاعدة الأولى: تتمثل فيما قدمه القرآن الكريم من نماذج تاريخية واقعية (ليست نظرية مجردة) شكلت خلاصة التجربة التاريخية الإنسانية في عصور

---

(48) الكتاني، محمد. **جدل العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي في الفكر القديم**، الدار البيضاء: دار الثقافة، ط1، 1991م، ص 390، 389.

(49) أمزيان، محمد محمد. **منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية**، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة رسائل جامعية، ط2، 1992م، ص266.

(50) المرجع السابق، ص323.

مختلفة*، وهذه النماذج عرضت أشكالاً مختلفة للنهوض والسقوط الحضاري، وبينت علل وعوامل التغير الاجتماعي المختلفة، السياسية والاقتصادية والاجتماعية. مما جعلها بمثابة شواهد يمكن الاستدلال بها على القوانين والسنن التي تحكم حركة التاريخ وترسم اتجاه التغير الاجتماعي.

والقاعدة الأخرى: تتعلق بالدراسة الواقعية والصحيحة للظروف الاجتماعية للمجتمعات المختلفة، مما يساعد في تطور معايير اجتماعية إسلامية لتغيير المجتمع وإصلاحه. فالقرآن الكريم يدعو إلى دراسة النماذج الواقعية القائمة التي لم يرد ذكرها عن طريق الوحي، حيث يتأكد هذا التوجيه القرآني في قول الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 137-138].

وعلى ذلك فإن المدخل الإسلامي لا يهمل علاقة الفكر بالواقع، ولا ينظر إلى الفكر كمجموعة من القضايا العقلية المجردة، ولكنه يضع في اعتباره أن الإبداعات الفكرية قد تحمل في طياتها كثيراً من تجارب أصحابها وخبراتهم، تلك التي اكتسبوها خلال مشاركتهم في الحياة والمجتمع. وبذلك لا يجرد الأفكار من صلتها بالواقع الاجتماعي والتاريخي التي ظهرت في سياقه. وعلاوة على ذلك يمكن ربط المنهج الإسلامي في التغيير بالمنهج الإسلامي العام الذي تحدده عدة ملامح أساسية، **أولاً**: التسليم لله بالألوهية (التوحيد) وهو أحد الأسس التي يجب مراعاتها في جميع مجالات الحياة، **ثانياً**: العمل على أساس التدرج، وهو نهج يقوم على سد الضرورات ثم يعقب ذلك بالقيام بالتحسينات، **ثالثاً**: التسليم بالمسلمات القطعية المنزلة من عند الله، وبعد ذلك يسمح بالدليل الظني في غير الآيات المحكمات، **رابعاً**: تقديم

(*) قدم القرآن نموذج القهر والاستبداد السياسي ممثلاً في فرعون وجنوده، وفي الملك النمرود الذي حاج إبراهيم في ربه. كما قدم نموذج العدل السياسي ممثلاً في ذي القرنين، وسليمان عليه السلام، وكذلك قدم نموذج الحكم الشوري ممثلاً في مملكة سبأ في عهد الملكة بلقيس، وقدم نموذج الاستغلال والظلم الاقتصادي ممثلاً في قارون وأهل مدين. علاوة على تقديم عديد من نماذج الفساد والظلم الاجتماعي والترف والفسوق وغيرها من العلل الاجتماعية الأخرى التي انتشرت في المجتمعات البائدة.

الكليات وترك الفروع والجزئيات للعقل المسلم[51].

ولذا يمكن الرجوع إلى المصادر الأساسية للفكر الإسلامي (القرآن الكريم والسنة النبوية) باعتباره إطاراً مرجعياً، ودليل عمل يوضح مدى الالتزام بالمنهج التحليلي لحركة التاريخ وفق معايير الوحي، كما يوضح مدى الالتزام بالمفاهيم الإسلامية من حيث المعنى والمضمون، إلى جانب ذلك يعدّ هذا الإطار المرجعي معياراً للحكم على الأفكار التي طرحها المفكرون الإسلاميون، ومدى توافقها مع مقاصد الشرع التي اعتمدها الوحي.

3 - مقاصد الشرع وعلاقتها بمداخل فهم التغير الاجتماعي من منظور إسلامي

لما كانت مقاصد القرآن ترمي إلى أمرين أساسيين: الأول كشف زيف ما جاء في الفكر البشري القديم من انحرافات نشأت في الناس وخرجت بهم من مفهوم الإسلام الذي هو دين البشرية منذ نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ، والآخر تقديم منهج كامل للإنسان في علاقته بالله تبارك وتعالى، وفي علاقته بالمجتمع[52]، فقد تحددت مقاصد الشريعة في خمسة أمور هي: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، وهي الأمور التي لو اختل منها واحد لاختلت لأجله الحياة، لذلك عدّ العلماء هذه الأمور مما تدعو الحياة إلى حفظها، وقد شرع الله لحفظ هذه الضروريات أو الكليات الخمس أحكاماً لوجودها وأخرى للمحافظة عليها[53].

ويعرف الشيخ الطاهر ابن عاشور مقاصد الشريعة العامة بأنها: (المعاني والحِكَم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا ما في الشريعة وغايتها العامة والمعاني التي لا يخلو التشريع من ملاحظتها،

---

(51) عمر، إبراهيم أحمد. **فلسفة التنمية رؤية إسلامية**، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة أبحاث علمية (4)، ط2، 1992م، ص38-39.

(52) الجندي، أنور. **نحو بناء منهج البدائل الإسلامية**: مرجع سابق، ص71.

(53) العالم، يوسف حامد. **المقاصد العامة للشريعة الإسلامية**، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1991م، ص80.

obeikandl.com

ويدخل في هذا أيضاً معان من الحِكَم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها)(54)، ويقول ابن عاشور (إن إصلاح التفكير من أهم ما قصدته الشريعة الإسلامية في إقامة نظام اجتماعي، وبهذا نفهم وجه اهتمام القرآن باستدعاء العقول والنظر والعلم والاعتبار...)(55) وبهذا كان التوجيه القرآني نحو المراجعة الدائمة والتقويم المستمر والإفادة من التجربة ينعكس على جوانب الحياة الفردية والاجتماعية كافة، حيث يحقق الانسجام والتوافق بين السنن الكونية والطبيعية وبين السنن الاجتماعية الإنسانية، ومن هذا المنطلق يمكننا فهم قضية التغير الاجتماعي من خلال ربطها بمقاصد الشريعة. حيث يرتبط الفقه المقاصدي بمصالح الفرد والجماعة معاً، وهذا ما بينه ابن عاشور في كتابه (مقاصد الشريعة الإسلامية) حين أشار إلى أن الشريعة الإسلامية عندما اهتمت بإصلاح الفرد -باعتبار هذا الإصلاح أحد مقاصد الشرع- كانت تقصد من هذا تحقيق مقصد أصلي، ألا وهو أن تكون الأمة الإسلامية قوية مرهوبة الجانب مطمئنة البال. فالمقصد العام من التشريع حسب ابن عاشور يتمثل في حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه وهو الإنسان، ويشمل صلاحه صلاح عقله وصلاح عمله وصلاح ما بين يديه من موجودات في العالم الذي يعيش فيه(56).

ومعنى ذلك أن التغيير طبقاً للرؤية الإسلامية هدفه الحفاظ على نظام الأمة، ومن ثم تنوعت مداخل التغيير ووسائله، وإن سعت إلى هدف واحد ألا وهو تحقيق مقاصد الشريعة، وقد عرض القرآن الكريم مدخلين أساسيين للتغيير: **المدخل الأول** إصلاحي ويتعلق بإصلاح العقيدة، **والمدخل الآخر** ثوري تحريري يتعلق بتغيير النظم والعلاقات الاجتماعية. واستطاع الإسلام أن يوفق بين المدخلين برغم ما قد يبدو من تعارض ظاهري بينهما، فقد ظهر

---

(54) ابن عاشور، محمد الطاهر. **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1978م، ص 52.

(55) ابن عاشور، محمد الطاهر. **أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ط2، 1985م، ص62.

(56) ابن عاشور، محمد الطاهر. **مقاصد الشريعة الإسلامية**، مرجع سابق، ص 63، 128.

الإسلام في عصر تتصارع فيه العقائد والأفكار والمبادئ، كما تتصادم فيه الجماعات والطوائف الاجتماعية المتباينة، وبدأ نشر الدعوة في عالم يموج بصراعات دولية عنيفة بين القوى السياسية والعرقية المختلفة. وكان من الطبيعي أن يواجه الإسلام بشتى ألوان المقاومة، كما كان عليه أن يخوض صراعاً داخلياً وخارجياً شديداً. ولكن المسيرة الإسلامية ظلت تحافظ على المنهج القرآني، في خضم تصارع القوى والأفكار حولها. فالتزمت بمبدأ: لا إكراه في الدين*، مع تمسكها بمبدأ الجهاد لإزالة أشكال الظلم والاستبداد والعبودية كافة ومناصرة المستضعفين والمقهورين**.

ويمكن استعراض أهم ملامح هذين المدخلين فيما يلي:

أ - المدخل الإصلاحي

من المتفق عليه أن الرسول ﷺ لم يأت بعقيدة دينية جديدة، بل أكد القرآن أن الإسلام هو المهمة التي قام بها الرسل جميعاً منذ أقدم عصور التاريخ الإنساني، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشّورىٰ: 13]. ولذلك كانت أولى مقاصد القرآن تتمثل في "تصحيح العقيدة"، أى تصحيح ما استقر بين الناس من تأويل وانحراف في التطبيق عن الأصول، والانحرافات الخاصة بالمعتقدات والطقوس الدينية، والتي ارتبطت بالضرورة بالواقع الاجتماعي، حيث ظهرت هذه الانحرافات لخدمة الأغراض الشخصية أو الإبقاء على أوضاع تفيد مصالح فئات قليلة على حساب الغالبية المستضعفة من البشر[57]. واعتمد في إصلاح العقيدة على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، اتباعاً لقول الله ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النّحل: 125].

(*) ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البَقَرَة: 256].

(**) ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النِّسَاء: 75].

(57) البهى، محمد. **الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر: مشكلات الحكم والتوجيه**، القاهرة: مكتبة وهبة، ط3، 1982م، ص81-83.

ب - المدخل الثوري التحريري

يشكل تصحيح العقيدة الخطوة التمهيدية الضرورية لإحداث ثورة تحريرية، تصلح المجتمع وترفع عن البشرية كل أشكال القهر المادي والفكري. ولذا كان القرآن الكريم هو النداء الرباني الذي حرر العقول والأفكار من أغلال العبودية التي كانوا يرسفون فيها، ووضع عنهم إصرهم الذي كانوا يرزحون تحته (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم)(58). وكانت الوسيلة الأولى لهذه الثورة الفكرية تتمثل في بناء شريعة جديدة تختلف عن الشرائع التي جاءت بها الرسالات السابقة*. وعلى ذلك جاء القرآن الكريم متفقاً مع الديانات السماوية السابقة في التوحيد، متفرداً عليها في الأحكام السلوكية والعبادات والمعاملات(59). ولذلك سمى الله تبارك وتعالى القرآن "فرقاناً " لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام(60). وبذلك شكل الإسلام ثورة اجتماعية فاصلة بين عهدين، عهد الجاهلية وعهد الإسلام، وحدد القرآن خصائص هذه الثورة في التدرج والتجدد والعالمية والشمول.فقد ربط القرآن الكريم بين تدرج النزول وبين عالمية الرسالة المحمدية كما يتبين من قول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1]**.

ولما كانت مقاصد الشريعة تقوم على مبدأين أساسيين: **الأول** التيسير عند التطبيق كما جاء في قول الله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرَة: 185]، **والآخرا** رفع الضرر، عملاً بقول الرسول ﷺ (لا ضرر ولا ضرار)(61). لذلك رأى ابن تيمية أن الأصوليين عندما حصروا المصالح

---

(58) المودودي، أبوالأعلى. **نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور**، دمشق: دار الفكر، 1989، ص30.

(*) ﴿...لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المَائدة: 48].

(59) انظر: ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، المجلد 3، ص92-93.

(60) المرجع السابق، ص 408.

(**) يقول ابن كثير إن كلمة "نزَل" جاءت بالتشديد لتفيد التكرار والتكثر بمعنى نزول القرآن منجماً.

(61) رواه مالك في الموطأ مرسلاً: عن عمرو بن يحيى، عن أبيه عن النبي ﷺ، =

الكلية في الضروريات الخمس، لم ينتبهوا إلى نوع آخر من المصالح، وهو ما عبر عنه بحقوق المسلمين بعضهم على بعض، وهو ما بنى عليه بعض المحدثين قولهم إن العدل وحقوق الفرد وحريته تدخل ضمن المقاصد الضرورية للشريعة[62].

وعلى ذلك ترتبط مقاصد الشريعة بالمصالح، حيث حدد الإمام الغزالي المصلحة بأنها كل ما يتضمن حفظ الأصول الخمسة، وعلى ذلك فكل ما يفوت هذه الأصول يعد مفسدة ودفعها مصلحة[63]. ولذلك كانت مقاصد الشريعة أصولاً ثابتة لا تتغير، بينما المصالح متغيرة بحسب الواقع. ولا يعني ذلك أن الشريعة متغيرة. والمتفق عليه أن الأحكام ثابتة، بمعنى ثبات الحكم في أصل المشروعية، فما كان واجباً يظل واجباً، وما كان حراماً يظل حراماً، ولا يتعارض ذلك مع تغير الحكم، أي انتقاله من وصف لآخر، طبقاً للمصلحة المترتبة عليه، حيث يتم ذلك الانتقال في إطار ضوابط محددة، أما التغير بمعنى التعديل في أصل الحكم فهو مرفوض شكلاً وموضوعاً، لما يترتب عليه من إهدار للشريعة واندثارها[64].

وبذلك يتفق مبدأ اختلاف المصالح مع سنة التغير الاجتماعي التي لا تتعارض مع ثبات مقاصد الشريعة. فالحياة لا تتغير من جميع الوجوه، والشريعة الإسلامية قامت على أساس الحقيقة المتمثلة في وجود ثوابت ومتغيرات في الحياة، ومن ثم جاءت بأحكام مفصلة في الجوانب الثابتة، وهي أحكام لا تخضع لمبدأ التغيير والتبديل على الإطلاق. بينما لم يتعرض القرآن الكريم، في الغالب، في أحكامه للتفاصيل والجزئيات، وجاءت معظمها في صورة أحكام مجملة -قوانين عامة ومبادئ كلية- يمكن تحكيمها

= والإمام أحمد في «مسنده» وابن ماجة في «سننه»، وذكره النووي في الأربعين وحسنه، وقال الحاكم صحيح الإسناد.

(62) الحسني، اسماعيل. **نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور**، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1995م، ص60-61.

(63) المرجع السابق، ص46.

(64) منسي، محمد قاسم، **تغير الظروف**، مرجع سابق، ص49.

في كل ما تعرض للناس في شؤون حياتهم[65]. وبذلك كانت الأحكام في القرآن تراعى جوانب التغير والثبات في الحياة الإنسانية.

ثانياً: فرضيات المدخل التحليلي ومستوياته:

تستخدم الدراسة المدخل التحليلي لفهم التصورات النظرية المتعلقة بالتغير الاجتماعي التي طرحتها أهم التيارات الفكرية الإسلامية في العصر الحديث، ويستند البحث إلى المرجعية النصية (القرآن الكريم والسنة النبوية) لإجراء عملية التحليل في إطار عدد من المحاور والعناصر المحددة، ولذلك يجب توضيح عناصر الرؤية التصورية الإسلامية لقضية التغير الاجتماعي، بالإضافة إلى عرض محاور التحليل، وفيما يلي استعراض لذلك.

1 - عناصر الرؤية التصورية الإسلامية لقضية التغير الاجتماعي

لما كان الإسلام خاتم الرسالات وتمامها، فقد أمر الله عباده بالخضوع التام لأحكامه وشرائعه في كل شعب الحياة، ونهي عن اتباع بعض تعاليمه ونبذ بعضها الآخر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [البَقَرَة: 208]. ولذلك وضعت النصوص الإسلامية (القرآن والسنة) نماذج مختلفة تبين المنهاج السليم في جوانب الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية كافة، وتقدم أطراً عملية ترسي دعائم مجتمع مسلم رشيد متطور. وكذلك ضمت منظومة الأفكار الإسلامية مجموعة من المفاهيم الأساسية المفسرة لظاهرة التغير الاجتماعي، مثلت مرجعية نصية لتفسير الحقائق التاريخية المتعلقة بأنماط التغير الحضاري، وتوضح الأسباب والعلل وراء قيام الحضارات وازدهارها، كما تبين الأسباب والعوامل المؤدية إلى سقوط الحضارات وانهيارها. وعلاوة على ذلك تحدد الأسس والخصائص العامة للتغير الاجتماعي والإصلاح المنشود، الذي يؤكد على مسؤولية الفرد والجماعة في بناء الحضارة ونهوض الأمة. وتستند هذه الدراسة إلى المرجعية

(65) الباحقنى، مصطفى محمد. **منهج القرآن في تقرير الأحكام**. طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ط1، 1984م، ص215.

النصية في تحليل التصورات النظرية التي قدمتها التيارات الفكرية موضوع التحليل والمرتبطة بالتغير الاجتماعي. وفيما يلي استعراض مختصر لأبرز ملامح النموذج التغييري المعروض في المرجعية النصية (القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة).

أ - حتمية التغير الاجتماعي

ينظر القرآن الكريم إلى التغير الاجتماعي بمختلف اتجاهاته بوصفه سنة إلهية، حيث تسير المجتمعات البشرية في حركة ذات وجهة معينة مشروطة بالالتزام بمنهج الله وتحقيق عهد الاستخلاف الذي أخذه الله على الإنسان[66]. ومعنى ذلك أن اتجاه التغير الحضاري ارتفاعاً وسقوطاً يتحدد طبقاً لمجموعة من السنن والقوانين التي تحكم اتجاه التغير الاجتماعي. ويشير القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عِمرَان: 137]. ومعنى أن التغير سنة ثابتة، أنه ليس أمراً عرضياً أو طارئاً أو استثنائياً في تاريخ المجتمعات البشرية، إنما هو قانون حتمي عام للحياة الإنسانية ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفَتْح: 23].

وعلى ذلك يعبر التغير في المجتمعات الإنسانية عن حركة متواصلة متفاعلة، تصل الماضي بالحاضر والمستقبل، وقد بين القرآن ذلك في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العَنكبوت: 19-20]. وقد رأى ابن كثير في تلك الآية إرشاداً إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله: السموات والكواكب والأرض والجبال والأودية والبحار والأنهار والأشجار والثمار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسهم[67]. وفي ذلك إشارة إلى (دورة الحياة)

---

(66) عارف، نصر محمد. **نظريات التنمية السياسية المعاصرة**، مرجع سابق، ص222.
(67) ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، المجلد3، ص537.

obeikandi.com

لكل ما قدره الله على الأرض، وهو نظام ينطبق على كل الأشياء مثلما ينطبق كذلك على الأمم والمجتمعات، تصديقاً لقول الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعَام: 165]. وقد اقتضت حكمة الله من هذا النظام الدوري القائم على التعاقب تحقيق التجدد الدائم في كل مجالات الحياة وأشكالها. وطبقاً لهذا النظام تتعاقب الأمم، كلما أهلك الله حضارة أنشأ غيرها، فلا تنطفئ المدنية من الأرض، ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبيَاء: 11].

ولعل ذلك يتفق مع الغاية من الاستخلاف. فالحياة ليست حركة لا علة لها ولا هدف منها. وشعور الإنسان بوجود الهدف والغاية من وجوده كله من حوله، وارتقاؤه في سلم الإنسانية ينبع نحو شعوره هذا وسعته ودقة تصوره لوجود الناموس وارتباط الأحداث والأشياء بهذا الناموس، ثم يرتبط هذا كله بإرادة عليا خالقة مدبرة لا تخلق الناس عبثاً ولا تتركهم سدى. وذلك معنى قول الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القِيَامَة: 36](68).

ولما كان الارتقاء هدفاً وغاية للتطور في الحياة الإنسانية، قضى الله سبحانه وتعالى أن تخلف المجتمعات الإنسانية بعضها بعضاً خلال حركة دائمة وتغير مستمر، وهي حركة لا تسير تلقائياً بل تتم بإرادة إنسانية ترسم اتجاه التاريخ فتقوم حضارات وتنهار أخرى في دورات متتابعة يقودها الإنسان ويوجهها. وتكون المحصلة النهائية تغييراً في المعالم المادية والعلاقات الإنسانية، في إطار السنن الثابتة الحاكمة للتطور. وعلى ذلك لا يقر القرآن التطور المطلق، ويؤكد أن الحضارة الإنسانية مهما علت وتقدمت فإنها سائرة لا محالة إلى الانهيار والدمار. ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسرَاء: 58].

ولذا نجد أن الآيات التي تتحدث عن تعاقب الحضارات الإنسانية، تؤكد

(68) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، بيروت: دار الشروق، ط13، ج6، 1987م، ص3774.

أن ازدهار الحضارة مادياً وعلمياً لا يضمن بقاءها واستمرارها إذا جانبت منهج الله. فالله يمهل المجتمعات المتقدمة التي لا تتبع هداه ولا تسير وفق سننه، فيستدرجهم ويطيل بقاءهم على ما هم فيه من غي وضلال، ثم إذا حان وقت هلاكهم أهلكهم. ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: 53].

ب - آليات التغير الاجتماعي

يسير التغير الاجتماعي بفعل آليات محددة لا تتوقف عن العمل. ومن أهم الآليات التي ركز عليها القرآن الكريم "**التداول**"، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 140]. وقد قضى الله أن يكون التداول بين الناس في القوة والرياسة كما يكون في المال، فتعاقب السلطة وتداول المال وإعادة توزيع الثروة بينالناس يضمن إعادة التوازن للنظام الاجتماعي والاقتصادي كلما اختلت جوانب التنظيم باحتكار السلطة والمال، وهي آلية دائمة لكسر الجمود وإعادة الحركة إلى المجتمع درءاً لشيوع المفاسد المدمرة للحياة الإنسانية*.

أما الآلية الثانية فهي "**التدافع**" بين الأمم والحضارات. حيث عبر القرآن عن الصراع والتنافس بكلمة الدفع**، في قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ

(*) لذلك جعل الله الحُكم في أموال الفيء -وهى الأموال التي تأتى من البلدان التي تفتح دون قتال- أن تصرف في ستة وجوه: (فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) وأوضح القرآن السبب في تحديد هذه المصارف لمال الفيء في قوله تعالى: ﴿...كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ [الحشر: 7]. أي لكيلا يبقى المال مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء.
انظر: ابن كثير. تفسير سورة الحشر: 7، المجلد 4، مرجع سابق، ص429.

(**) الدفع في المعنى اللغوي تنحية وإزالة الشيء بقوة، ويقال دفع عنه الأذى والشر، كما يقال دفع القول أي رده بالحجة، والاندفاع أي المضي، ومنها الدفاع الشرعي بمعنى الإباحة القانونية لاستخدام القدر اللازم من القوة لدرء خطر الأعداء.
انظر: مجمع اللغة العربية. **المعجم الوجيز**. القاهرة: وزارة التربية والتعليم، 2003م، ص230.

﴿ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البَقَرَة: 251]. ويذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية أن الله ذو من على العالمين ورحمة بهم، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً، وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله(69). ثم يذكر في موقع آخر أنه لولا أن الله يدفع بقوم عن قوم ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض(70). ويوضح ذلك أن الدفع تعبير عن المواجهة بين الخير والشر، وقد شرع الله سبحانه وتعالى دفع الشر بهدف الإصلاح. فالحياة كلها كانت تفسد لولا أنه من طبيعة الناس أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرة لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول وتظل أبداً يقظة عاملة، مستنبطة لذخائر الأرض، مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء. فيجعل الله حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية، ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب في النهاية وتنتصر(71).

وقد حرص القرآن على تأكيد أن الحكمة من إباحة الدفع تهدف إلى نفع البشرية، كما حرص أيضاً على توضيح أن هذا الهدف النبيل ينبغي أن يتحقق بأفضل السبل والوسائل، فالإسلام لا يقر مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 96]، ويوضح القرآن أن الإحسان إلى من يسيء إليك يستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة(72). ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فُصّلَت: 34]. ويعني ذلك أن مواجهة الأذى بالإحسان جدير بتحقيق التصالح بين الفئتين المتصارعتين، بما في ذلك من المشقة على

---

(69) ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، تفسير سورة البقرة، 251، مج3، مرجع سابق، ص396.

(70) المرجع السابق، تفسير سورة الحج: 40، المجلد 3، ص301.

(71) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج1، ص271.

(72) ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، تفسير سورة المؤمنون: 96، مج3، ص338.

Obeikandl.com

النفوس، فذلك يحتاج إلى قدر كبير من مجاهدة النفس بالصبر وبطاعة الله*.

وهكذا يمكن القول إن التداول والتدافع يشكلان قاعدة ضابطة تنظم الأمور على الأرض بأن يجعل الله فرقاً وجماعات من البشر يعلو شأنهم وينالون غلبة وسطوة وقوة إلى قدر محدد حتى إذا ما تجاوزت إحداها حدودها كسرت شوكتها، أما إذا جعلت الغلبة والسيطرة على الأرض لقوم أو حزب على الدوام فلا محالة من انتشار الفساد في ملك الله(73). وبذلك تكون الحكمة منهما حفظ التوازن الاجتماعي وتمكين الفئات المستضعفة ودرء الفساد، وذلك كله بهدف عمارة الأرض وتطور الحضارة الإنسانية.

ج - طبيعة التغير الاجتماعي

يشير القرآن الكريم إلى التغير بوصفه عملية متدرجة تتم خلال مراحل متتالية. حيث تبدأ الحضارة الإنسانية في النمو والازدهار وتستمر في سيرها حتى يأذن الله بهلاكها، ولا يأتي هلاك الحضارة فجأة بدون مقدمات. وهذا ما أكده القرآن في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: 59]. ولذلك قدر الله لكل مجتمع أجلاً محدداً في كتابه المحفوظ، وتلك سنة لا تتغير. وخلال حركة التاريخ تتوالى الأمم أمة بعد أمة وقرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل وخلفاً بعد سلف(74). وذلك معنى قول الله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [المؤمنون: 43]، وفي ذلك إخبار بأن هلاك الحضارة وخراب العمران، لا يأتي فجأة بل يسبقه مقدمات موضوعية وأسباب واقعية نابعة من المجتمع نفسه، تتفاعل على مدار الزمن حتى يلحق الدمار ببناء المجتمع.

(*) يذكر ابن كثير قول عمر رضي الله عنه: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، ويعقب ابن كثير على ذلك قائلاً: وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك فإنه يشق على النفوس.
انظر: ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، مج4، ص127.

(73) المودودي، أبو الأعلى. **تفهيم القرآن**، تعريب: أحمد إدريس، بيروت: دار الشروق، ج1، 1988م، ص164.

(74) انظر: ابن كثير. مرجع سابق، مج3، ص326.

ويتم التغير من خلال مجموعة من التحولات ترتبط بالاعتقاد والممارسات الإنسانية، وتؤدى حتماً إلى انهيار الحضارة، وهذه التحولات جمعها القرآن في آية واحدة ورتبها في ثلاثة تحولات متعاقبة:

التحول الأول: عقائدي عبر عنه القرآن في قول الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البَقَرَة: 27]، ويظهر في الفسوق بعد الإيمان، أي العصيان وتعدي حدود الله التي أقرها وفرضها. ولذا يعدّ نقضاً للعهد الذي وثقته وصدقته البشرية جمعاء حين خلق الله آدم عليه السلام، وهو عهد الخضوع لله وحده وطاعته وعبادته دون سواه.

و**التحول الثاني**: اجتماعي يتمثل في تفكك العلاقات الاجتماعية وفسادها، يكشف عنه قول الله: ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: 27]. والمقصود كافة الصور والحالات التي تتخذ فيها العلاقات الإنسانية شكلاً يخالف الاستقامة والمشروعية، ويندرج تحت هذا المعنى فساد المعاملات الإنسانية وخراب نظام الأخلاق والمجتمع والتحضر. من أجل هذا يمقت القرآن الكريم انتهاك العلاقات، بل ويمقت مجرد إساءة استخدامها لما في ذلك من مسببات الفوضى والاضطراب والصراع والفساد.

ثم يأتي **التحول الثالث**: ويتمثل في فساد أنساق المجتمع كافة، الثقافية والسياسية والاقتصادية والبيئية وغيرها،، وقد عبرت الآية الكريمة عن ذلك بالقول: ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البَقَرَة: 27]. ويعد هذا الفساد نتيجة حتمية لقطع أو فساد ما بين العبد والرب من روابط وكذا ما بين الإنسان وأخيه من وشائج(75). ويلاحظ أن القرآن الكريم استخدم صيغة الجمع، مما يشير إلى أن أسباب الفساد جماعية وليست فردية، وكذلك تكون مظاهره. ومن هنا تكون ملامح التحولات شاملة وعامة في المجتمع كله، يؤيد ذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفَال: 25].

وكما يأتي التغيير الذاتي في المجتمع تدريجياً ومرحلياً، كذلك يكون

---

(75) انظر: المودودي، أبو الأعلى. **تفهيم القرآن**، مرجع سابق، ص56-57.

التغيير الإلهي تدريجياً ومرحلياً، وتسبقه مقدمات قد تختلف من مجتمع إلى آخر. وقد عرض القرآن لبعضها مشيراً إلى أنها قد تأتي على صورة زيادة في النعمة وعلواً في الشأن مع تعاظم المعاصي واجتراء على الحرمات. ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44]. وهذا ما أسماه القرآن بالاستدراج. وأشار إليه الرسول ﷺ بقوله: (إذا رأيت الله تبارك وتعالى يعطى العبد ما يشاء وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له)(76)* وفي هذه المرحلة يعفو الله عن كثير من الأفعال الفاسدة التي تنتشر في المجتمع من إسراف وظلم وإعراض وغيرها**، ويتجاوز عن كثير من الأعمال قبل أن تأتى مرحلة النُذر. وفي هذه المرحلة يتعرض المجتمع للبلاء والعذاب ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرُّوم: 41]. وبذلك تبدو مظاهر الفقر والمرض وكثير من الكوارث التي تحل بالمجتمع كإشارة تحذيرية، لعلها تكون عبرة للعقلاء ودعاة الإصلاح ليدعوا الناس إلى الصلاح والتوبة والعودة إلى منهج الله***.

وقد يأتي ابتلاء الله للمجتمع في هذه المرحلة على شكل نوبات من الشدة والمرض والفقر، ثم يقلبها الله رخاءً وعافيةً وغنى****. ويبين القرآن أن النعمة قد تكون من أسباب الغفلة عن سنن الله في التغيير، فيزعم بعض الناس أن عطاء الله لهم لكرامتهم ومعزتهم عنده فيقولون: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سَبَإ: 35]. ويرد عليهم القرآن نافياً زعمهم هذا بقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون:

---

(76) انظر: ابن كثير. تفسير سورة الزخرف، مرجع سابق، مج4، ص164.

(*) أخرجه أحمد في «المسند» عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(**) ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشّورىٰ: 30].

(***) عرض القرآن لما ألم بقوم فرعون من نذر وإنذارات كالمجاعات والأمراض والكوارث الطبيعية كالطوفان والجراد، ووصفها القرآن بالآيات المفصلات لأنها كانت علامات متتابعة اختبرهم بها الله ليعتبروا ولكنهم تمردوا وعاندوا الحق وأصروا على الباطل. ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 130].

(****) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: 94].

56-55] ويؤكد النبي ﷺ ذلك بقوله: (إن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب. . .)(77)*. حيث يُعتبر العطاء الدنيوي عموماً من باب الابتلاء، ولذا يعدُّ الكفر بهذا العطاء والجحود بأنعم الله من الظلم الذي يؤدي إلى الانهيار الحضاري، إذ يكون جزاء الكفر بنعم الله عليهم أن يذيقهم شيئاً من نقمته بسلب النعم وبإذاقتهم الجوع والخوف(78). وبعد أن تنتهي المراحل السابقة بما تشمله من تقلبات وتحولات اجتماعية متباينة، وبعد أن يتأكد عدم إدراك أفراد المجتمع لحقيقة الأحداث والظواهر من حولهم، تكون الحجة قد تمت عليهم، فتأتي سنة الله بهلاك الحضارة هلاك استئصال. وهنا تدور دورة التاريخ بسنة التداول أو الاستبدال الحضاري. مجتمع يسقط وآخر يرتفع، وحضارة تنهار تخلفها

وترثها حضارة ناشئة ناهضة يمكن لها لله في الأرض**. وقد بين الرسول ﷺ أن هلاك الأمم لا يحدث إلا بعد أن يصبح الفساد ظاهرة اجتماعية عامة تخرج عن نطاق السلوك الفردي، فيلحق بكل النظم الاجتماعية ويشمل مجالات الحياة الاجتماعية كافة. حيث يشير الرسول الكريم إلى أن هلاك الأمة يشمل المجتمع بأكمله حينما يكثر الخبث*** . ومعنى ذلك أن ما

---

(77) انظر: ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، تفسير سورة المؤمنون، مج3، ص 329.

(*) أخرجه أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وأورد أبو حامد الغزالي في «إحياء علوم الدين» في باب طول الأمل قول الرسول ﷺ: (... ألا إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ويبغض، وإذا أحب عبداً أعطاه الإيمان) في حديث طويل برواية ابن أبي الدنيا عن علي كرم الله وجهه.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النّحل: 112].

(78) عطية، زينب. **أصول العلوم الإنسانية من القرآن الكريم: كشاف موضوعي**، المنصورة: دار الوفاء، ج1، مج2، ط1، 1995، ص1629.

(**) حذر الرسول ﷺ أصحابه من أن تستهويهم مظاهر الترف إذا مكن لهم الله في الأرض قائلاً: (فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بُسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم). رواه البخاري ومسلم.

(***)روى البخاري عن أم المؤمنين زينب بنت جحش أنها قالت: استيقظ الرسول ﷺ من =

يقع على المجتمع من بلاء هو نتاج للمعتقدات والممارسات الإنسانية الفاسدة، وفي المقابل يكون التغيير والإصلاح مرتبطاً بأفعال البشر وبالإرادة الإنسانية.

د - التغير الاجتماعي في القرآن الكريم بين التمكين والانهيار الحضاري

يعرض القرآن الكريم للتغير الاجتماعي في نموذجين ثنائيين متقابلين، فيقدم صور الانهيار الحضاري (التخلف) في مقابل التمكين الحضاري (التقدم). ويكشف القرآن أن التقدم المادي والازدهار الحضاري لا يقتصر على الأمة المؤمنة، ولا يتعلق بالكفر أو الإيمان. وتلك حقيقة تؤيدها المشاهد التاريخية، كما تؤكدها الوقائع المعاصرة. فهناك مجتمعات أسست حضارات مادية متقدمة تعتمد على العلم والمال والقوة ولا تستند إلى المنهج الإلهي. والرسول ﷺ يشير إلى ذلك بقوله: (الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر. . .)(79). ويشهد القرآن الكريم على قيام ممالك وحضارات بنيت على الحق وأخرى بنيت على الباطل. وفي ذلك حكمة قدرها الله ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عِمرَان: 26]. فالملك شامل لكل ملك حقاً أو باطلاً، عدلاً أو جوراً. ولكن الملك يكون بالنسبة إلى من هو أهله نعمة من الله سبحانه وبالنسبة إلى غير أهله نقمة وهو على كل حال منسوب إلى الله وفتنة يمتحن بها عباده(80).

ومن مظاهر التمكين المادية في الأرض الرخاء وبسط الرزق وتزيين

= النوم محمراً وجهه يقول لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وعقد سفيان تسعين أو مائة، قيل: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال نعم إذا كثُر الخبث. رواه البخاري.

انظر: العسقلاني، أحمد بن حجر. **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، كتاب الفتن، دار إحياء الكتب العربية، مج4، ص233.

(79) أخرجه الإمام الشافعي في مسنده عن عمر رضي الله عنه. انظر: **مسند الإمام الشافعي**، ص 23.

(80) عطية، زينب. **أصول العلوم الإنسانية من القرآن الكريم**، مرجع سابق، مج1، ص42.

الأرض*، وكلها مرتبطة بمشيئة الله وعلمه**. ولا تتعلق برضى الله أو غضبه، إنما هو الابتلاء ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: 7]. ولذا بين القرآن الكريم أن الله قد قضى بالتمكين في الأرض لطائفتين مختلفتين: **الأولى** من الذين حق عليهم الهلاك بعد التمكين لظلمهم وفسادهم. وهؤلاء قال عنهم القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44]. وقد قضى الله أن يعطى هؤلاء ما يطلبونه من مظاهر التقدم، برغم تعطيلهم لأحكامه وإنكارهم لقدرته ومشيئته. وبذلك قرر القرآن قاعدة ثابتة: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: 18]. أما الطائفة **الثانية** فهم المؤمنون الذين أخلصوا لله فكان تقدمهم ورقيهم يسير حسب المنهج الإلهي وهؤلاء ذكرهم القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: 41]***.

ومعنى ذلك أن كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة يمدهم الله من عطائه فلم يكن عطاء الله محظوراً، أي لا يمنعه أحد ولا يرده راد .﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: 20](81). والعبرة في ذلك أن التقدم الحضاري والرقى متاح أمام المجتمعات الإنسانية كافة المؤمنة والكافرة، عند أخذ الأسباب، وبذل الجهد من أجل الحصول على الشيء ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ

(*) عرض القرآن الكريم لعدد من مظاهر التمكين كالمال والقوة والعلم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ [القَصَص: 78] وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مَريَم: 74].

(**) ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشّورىٰ: 12].

(***) قدم القرآن بعض الأمثلة للمؤمنين الذين مكن لهم الله في الأرض ومن هؤلاء يوسف عليه السلام ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسُف: 56]، وذي القرنين ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: 83].

(81) انظر: ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، مج3، ص49.

أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾ [هُود: 15]. وقد ورد في القرآن الكريم كثير من النصوص الدالة على وضع الأسباب لمقاصدها مثل قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60] وقوله: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: 179]. ودعا الرسول ﷺ إلى ذلك بقوله: (المؤمن القويّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز)[82]*.

وهكذا تتساوى المجتمعات المادية والمجتمعات الإنسانية التوحيدية في مظاهر التقدم والعمران البشرى متى امتلكت القدرات اللازمة لتأسيس المدنية والحضارة، غير أن الفارق بينهما يبدو في مسار التغير الاجتماعي، فالمحور الذي يتحرك حوله المجتمع التوحيدي يظل دائماً في إطار الوحي الإلهي، ويستند إلى ثلاثة أبعاد متوازية -روحية وعقلية ومادية- ولهذا يتعلق التغيير بالإصلاح، ويرتبط الإصلاح بالإيمان تصديقاً لقول الله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾ [النُّور: 55]. وحقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله للمؤمنين بالاستخلاف تستغرق النشاط الإنساني كله في صورة عمل ونشاط وبناء وتوفير الأسباب وإعداد العدة والأخذ بالوسائل والتهيؤ لحمل أمانة الاستخلاف في الأرض بالإصلاح والعدل والاستعلاء على شهوات الأرض بعمارة هذه الأرض والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة ومن رصيد ومن طاقة مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله ليكون جديراً بالاستخلاف والتمكين والأمن[83].

أما المجتمعات المادية فتعطل الجوانب الروحية وتتجاهل الاحتياجات الضرورية للنفس الإنسانية، وتكتفي بالجوانب المادية، بادعاء أن الاعتقاد

---

(82) دراز، محمد عبد الله. **المختار من كنوز السنة النبوية**، الدوحة: وزارة الأوقاف، 1996م، ص222.

(*) حديث صحيح أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستهانة.

(83) انظر: قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج4، ص2529.

بالجوانب الروحية والأمور الغيبية يتناقض مع التفكير العقلاني. وذلك خلافاً للمنهج القرآني الذي يعتبر الدنيا دار اختبار لا دار قرار. وإنما خلق الله السموات والأرض وما بينهما لنفع الناس ولم يخلقهم عبثاً، ليختبر عباده أيهم أحسن عملاً*، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل على منهج الله وشريعته[84]. فإذا فقد العمل هذه الشروط حبط وبطل، وخرج عن حدود المنطق السليم ويؤيد ذلك قول الرسول ﷺ: (الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له)[85]**.

ووفقاً لذلك ينعكس الاختلاف بين المجتمعات التوحيدية والمجتمعات المادية على شكل العلاقات الاجتماعية وعلى النظم القائمة وعلى مختلف أوجه التفاعلات بين الأفراد والجماعات. ويبدو ذلك واضحاً في سياسات التطوير التي تتبعها المجتمعات المادية، والتي تستند إلى فلسفات مادية تعجز عن إدراك الغاية المثلى لإعمار الأرض، فتسفر التحولات الاجتماعية عن مظاهر التفكك والانهيار الأخلاقي وتفضي نتائجها إلى مشكلات وأزمات اجتماعية حادة تهدد بانهيار التوازن في البناء الاجتماعي، ومن ثم ينتج الضرر من حيث يعتقدون أنه خير ونفع ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البَقَرَة: 11]***.

والقرآن الكريم يسجل ذلك الوضع المتأزم في الحضارة المادية مستخدماً مصطلحين متقابلين يعبران عن نتائج عملية التغير الاجتماعي، وهما مصطلحا

(*) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هُود: 7].

(84) ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، مج2، ص571.

(85) المرجع السابق، مج3، ص49.

(**) أخرجه أحمد في «مسنده» عن عائشة رضي الله عنها، كما أخرجه البيهقي، وإسنادهما جيد.

(***)ورد عن الصحابي الجليل سلمان الفارسي أنه قال في تفسير هذه الآية: ما جاء هؤلاء. وقال ابن جرير يحتمل أن سلمان رضي الله عنه أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فساداً من الذين كانوا في زمن النبي عليه الصلاة والسلام. انظر: ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، مج1، ص71.

(الإصـلاح) و (الفسـاد). والفساد في التصـوير القرآني يأتي نتيجة طبيعية لمجموعة من الآفات الاجتماعية التي تقترن بالتحـولات الاجـتماعية الجارية على أساس استبدال المنهج المادي والأحكام البشـرية بالمنهج الإلهي وأحكام الوحي**. وكلما اتسـعت الفجوة بين المنهجين، تزايدت حدة هذه الآفات والأمراض الاجتماعية. ثـم يبين القرآن أن ظهـور الفسـاد ينتج عن تلك الأمراض الاجتماعية وممارسات البشر الخاطئة ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرُّوم: 41].

ويكشف الرسول ﷺ عن خطورة تلك الآفات الاجتماعية التي تؤدي إلى خراب العمران وانهيار الأمة وتسلط الآخرين عليها، فيقول: (يامعشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن. لم تظهـر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشـا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهـم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعـوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم)(86). وهكذا يوضح الرسول ﷺ أن المجتمع لا يصلح إذا سمحت

(**) الفساد في لغة القرآن هو خروج الشيء عن الاعتدال والاستقامة قليلاً أو كثيراً، ويضاده الصلاح، وقد وصف القرآن المفسدين بأنهم سفهاء ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: 13]. والسفيه هو الجاهل ضعيف الرأي قليل المعرفة بمواضع المنافع والمضار. ولذلك يضل الذين يستبدلون المنهج البشرى بالمنهج الإلهي. ﴿...وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البَقَرَة: 108]

انظر: الزين، سميح عاطف. **مجمع البيان الحديث: تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط2، 1984م، ص662

- الأندلسي، أبو يحيى محمد بن صمادح النجيب. **تفسير الطبري** "مختصر"، مرجع سابق، ص4.

(86) رواه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب العقوبات، ج2، ص254، ورواه البيهقي والحاكم من حديث بريدة وقال صحيح على شرط مسلم.

الجماعة بالتفريط في العقائد والأخلاق والواجبات الدينية والاجتماعية التي تضمن استقامة الأمة وترابطها.

ويعرض القرآن الكريم، في مواضع متفرقة، صوراً متنوعة للآفات الاجتماعية التي تؤدي إلى هلاك المجتمع باعتبارها تشكل أهم علل السقوط الحضاري وأسبابه. ومن أهم تلك الأسباب الواردة في القرآن:

الإعـراض

أي عدم شكر النعمة بالصد عن سبيل الله، أو استعمال العلم في غير الحق، أو الإهمال وعدم الأخذ بالأسباب. وقد يحمل الإعراض هذه المعاني كلها، والإعراض من أسباب سلب رخاء المعيشة وزوال الرفاهية*.

بطر المعيشة

أي الاغترار وعدم القيام بحق النعمة وصرفها إلى غير وجهها[(87)]. وقد قال الله تعالى مخبراً عن الحضارات البائدة أنها طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فأخذهم العذاب بظلمهم، فدثرت ديارهم أي رجعت خراباً ليس فيها أحد. ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القَصَص: 58][(88)].

(*) فسَّر ابن كثير قول الله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم﴾ [سَبَإ: 15-16]. إن أهل سبأ كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب سد مأرب هو الجرذ فكانوا يرصدون عنده السنانير مدة من الزمن، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير ونقت السد، فجاءت السيول فانهار البناء فأدركهم الغرق والهلاك. ويقال إن حضارة سبأ قامت على مدنية زاهرة ومعرفة بعلوم الهندسة وعلوم العمران ومعارف غزيرة بشؤون الحياة. وكان إعراضهم باستعمالهم العلم في غير الحق. انظر: ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، سبأ: 15-16، المجلد3، ص698

- محمد هشيور. **سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها**. المنصورة: دار الوفاء، 1997م، ص233.

(87) الزين، سميح عاطف. مرجع سابق، ص131.

(88) انظر: ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، مج3، ص521.

الترف

وهو سلوك يتعلق بالصفوة المتسلطة من الطبقات العليا. والمترفون هم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة، وقيل هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر[89]. وهم الطبقة التي تنشر الفسق حتى يعم في المجتمع ويتحول من سلوك فردى إلى مرض اجتماعي. وحينما لا يواجه هذا الترف بمقاومة من غالبية أفراد المجتمع، صار المجتمع كله مسؤولاً عن هذا الترف وعمّه الله بعقاب. ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [الإسرَاء: 16].

الظلم الاجتماعي

وما يرتبط بذلك من التفاوت الطبقي ومظاهر الحرمان واستغلال المستضعفين واضطهاد للفقراء والطغيان أي منع حق الفقراء[90]. وقد كان استفحال التفاوت الطبقي عاملاً رئيسياً لخراب العمران في الحضارة المصرية القديمة، وكان حكم الله بزوال هذا التقسيم الطبقي المتعسف، في ثورة كبرى شكلت حداً فاصلاً بين عصرين من عصور الإنسانية، فانتصر الله للمستضعفين وأورثهم الأرض وجعل لهم ملكاً وحكماً*. وتؤكد آيات القرآن في أكثر من موضع أن الثورات الاجتماعية الكبرى التي تزعمها الأنبياء جميعاً كانت تقابل دائماً بمقاومة شديدة من السادة والشرفاء بحجة رفضهم للمساواة الاجتماعية بين الناس. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ﴾ [البَقَرَة: 13]. وبذلك ترتبط قضية الكفر في أحد جوانبها بأسباب اجتماعية واقتصادية، تنطلق من مبدأ الدفاع عن الامتيازات المكتسبة في ظل نظام اجتماعي طبقي ظالم. ولذا كان من الطبيعي أن يكون أتباع الرسل أكثرهم من

---

(89) المرجع السابق، مج3، ص708.

(90) عطية، زينب. **أصول العلوم الإنسانية من القرآن الكريم**، مرجع سابق، مج1، ص2498.

(*) ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ﴾ [القَصَص: 4].
﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [القَصَص: 5].

المستضعفين في الأرض، ومن الفئات مهضومة الحقوق(*).

وبالرغم من هذه الحقيقة التي قررها القرآن، إلا أنه من الثابت أن حركات الإصلاح والتغيير تتعرض دائماً لشتى أنواع المقاومة من السادة والعامة على السواء، فالسادة أو الخاصة يجهرون بالكفر ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سَبَإ: 34]. وكذلك العامة الجهلاء يتخذون مواقف رافضة بحجة أنهم مستضعفون(**). وهم في الواقع يشكلون الغالبية المستضعفة، ولو أنهم بادروا إلى إتباع الرسل ودعاة الإصلاح، لانتهى الأمر إلى الإصلاح دون أن يكون مصير المجتمع الهلاك(***). ولكنهم يستجيبون للضلالة، ويكونون أعواناً للطغاة في بغيهم وأتباعاً لهم، فيلحقوا بهم ويلاقوا ما لاقوه، ويوضح ذلك قول الله: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: 67]. مما يعنى أن المسؤولية في الفساد الاجتماعي مشتركة بين شرائح المجتمع كافة، يتحملها الخاصة والعامة الذين يستند موقفهم عادة إلى التمسك بالتقاليد والأعراف ونحو ذلك من العادات الاجتماعية البعيدة عن روح الدين الحق.

ويوضح القرآن الكريم أن الهلاك يكون على ثلاثة أوجه متدرجة، الوجه

(*) أتى النبي رجل فقال: إلام تدعو؟ قال: أدعو إلى كذا وكذا، قال أشهد أنك رسول الله، قال ﷺ: وما علمك بذلك؟ فقال: إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم. وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل قال فيها: وسألتك أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم؟ فزعمت بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل. (أورده ابن كثير في تفسير القرآن العظيم من قول ابن أبي حاتم عن سفيان بن عاصم عن أبي رزين. انظر: ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، مج 3، ص708.

(**) سجل القرآن ضعف حجتهم وظلمهم لأنفسهم وإجرامهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النِّسَاء: 97]، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سَبَإ: 32].

(***) استخدم القرآن لفظ الهلاك بثلاثة معان: افتقاد الشيء عن الشخص وهو عند غيره موجود كقوله تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحَاقَّة: 29]، وهلاك الشيء باستحالة وفساد كقوله: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ [البَقَرَة: 205]، والثالث هلاك الفناء كقوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص: 88] وقوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ [الأعرَاف: 4].
انظر: سميح عاطف. مرجع سابق، ص896-897.

الأول يظهر في انتشار الفساد المقترن بقلة النماء وشيوع الكساد، و**الثاني** يأتي بصورة فقدان المكانة وزوال التقدم وزوال النعم وخراب العمران، أما **الثالث** فيكون بزوال الحضارة وفنائها وانتهاء أجل الأمة. وهذا حال الأمم البائدة التي كفرت بأنعم الله فأفناها الله عن آخرها. ويقول ابن كثير أن المجتمعات الإنسانية لم تعرف هلاك الاستئصال بعد أن أنزل الله التوراة، فلم يهلك الله أمة من الأمم عن آخرها بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، وذلك معنى قوله: (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى)[91]. وربما يشير ذلك إلى تجاوز الحضارة الإنسانية لمرحلة متقدمة لم تشهدها الحضارات القديمة، حيث بلغت قدراً من التطور يجعل بمقدور الجماعة المؤمنة تحمل أعباء التكليف بالجهاد، ولذلك قضت مشيئة الله أن تتعلق عملية التغيير بالمسؤولية البشرية الجماعية.

مما سبق يمكن استنتاج أن عملية الإصلاح، طبقاً للمنهج القرآني، تتطلب تعديل كل من الجانب العقائدي والجانب الاجتماعي. ويبدو ذلك واضحاً في قول الرسول ﷺ: (كلكم راع ومسؤول عن رعيته، الإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته والمرأة في بيت زوجها راعية...)[92]. وفي هذا الحديث من الفقه أن الأمة على شبيه الشجرة، وصلاح كل أصل منها سبب لصلاح من بعده، فالإمام راع لجميع الأمة وهو مسؤول عن رعيته، هذه المسؤولية تتناول كل ما يقتضى السؤال عنه من أمر دينه ودنياه، والرعية مسؤولة عن إمامها، عن كل ما يتعلق بهم من أمره من دين ودنيا[93].

(91) انظر: ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، مج3، ص746.

(92) حديث متفق عليه عن عبد الله بن عمر، رواه البخاري في الصحيح عن أبي اليمان، وأخرجه مسلم عن الزهري.

(93) ابن هبيرة، يحيى بن محمد. **الإفصاح عن معاني الصحاح**. تحقيق: محمد محيى الدين الأصفر، وكاظم طليب حمزة، الدوحة: وزارة الأوقاف القطرية، ج3، ط1، 1998م، ص274.

هـ - الوسائل العملية للتغير الاجتماعي كما جاءت في الكتاب والسنة

باستعراض نماذج الحضارات البائدة الواردة في القرآن الكريم،وبتأمل أسباب ازدهارها وعلل اندثارها، يبدو التغير الاجتماعي بما يفضى إليه من فساد أو إصلاح نتاجاً طبيعياً لمعتقدات الجماعة الإنسانية وممارساتها، ومن ثم يقع على عاتق الإنسان في الأساس. والقرآن الكريم لا يكتفي باستعراض علل هلاك الأمم وعوامل انهيار الحضارات فقط، بل يرشد إلى سبل المحافظة على منجزات الحضارة ومظاهر التحضر والمدنية، كما يوجه إلى وسائل الإصلاح. ومن ذلك ما جاء على لسان هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هُود: 52].

ويستدل من هذه الآية على أهمية القوة المادية في بناء الحضارة، ولذا دعا الإسلام إلى التمسك بها*. كما أن في الآية توجيه إلى ضرورة دعم القوة المادية بالقوة المعنوية كأساس جوهري للإصلاح، مما يتطلب طاعة الله والسير على منهجه في شتى مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية**. وعلاوة على ذلك تشير الآية إشارة واضحة إلى المسؤولية الكاملة للإنسان في عملية التغير الاجتماعي. وهى حقيقة أكدها القرآن كثيراً، مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يُونس: 44]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرّعد: 11]. وفي الحديث القدسي فيما يرويه النبي ﷺ عن رب العزة: (يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا -إلى أن قال في آخره- يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)[94].

(*) ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: 60].

(**) لذلك تكرر اقتران الإصلاح بالإيمان، في كثير من آيات القرآن مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ [يُونس: 9].

(94) انظر: ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، تفسير سورة يونس، مج2، ص547.

وعلى ذلك حدد القرآن الكريم أسس منهج التغيير الاجتماعي الإصلاحي في عدة خطوات: الخطوة الأولى الاعتقاد في قدرة الله والتمسك بمنهجه وطريقه، ثم الإقرار بالمسؤولية الإنسانية في توجيه حركة التاريخ وقيادة التحولات الاجتماعية في كل زمان ومكان. وهذا ما تلخصه الآية الكريمة ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النِّساء: 79]. واتباع المنهج الإلهي في التغيير والإصلاح يستلزم وسائل عملية يرشد إليها القرآن الكريم، ويمكن استعراضها فيما يلي:

الوسـيلة الأولى:

استخدام العقل والاستعانة بالأساليب العلمية، حيث يؤكد القرآن على أهمية البحث في الكون والنفس وسائر الموجودات الطبيعية. ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾ [فُصِّلَت: 53]. ويدعو الله عز وجل إلى الاستعانة بالعلم في الوصول إلى الحقيقة ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سَبَإ: 6]. ولذا يصف القرآن كل من يخرج عن منهج الله بأنهم فاقدو العقل والحواس ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلك: 10]. وفي الحديث النبوي: (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة... وهو الأنيس في الوحشة والسلاح على الأعداء... يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة تقتص آثارهم ويقتدى بفعالهم)[95].

الوسـيلة الثانية:

التجديد الدائم وعدم الميل إلى المحافظة. ولما كانت طبيعة المجتمعات الإنسانية تميل في كثير من الأحيان إلى المحافظة، حتى إن الحركات الثورية تبدأ عادة بالتجديد ثم تنتهي إلى المحافظة، لذلك جعل القرآن الكريم التجديد قاعدة مستمرة يجب أن يلتزم بها البشر. فنهى عن تبني الأفكار القديمة دون

(95) رواه ابن عبد البر النمري في كتاب العلم من رواية موسى بن محمد ابن عطاء القرشي، (في) **الترغيب والترهيب**. ج1، ص41؛ وأخرجه مسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

تعقل. ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 36]. كما حذر من التقليد الأعمى ومجاراة الناس بدون منطق سليم. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170]. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)(96). والتجديد المقصود هو تغيير للمفهومات المترسبة في أذهان الناس عن الدين، ورسم الصورة الصحيحة الواضحة ثم هو بعد ذلك تعديل لأوضاع الناس وسلوكهم حسبما يقتضيه الإسلام. وبذلك يشير الحديث إلى تجديد العقيدة والسلوك الفردي والاجتماعي والمبادئ والأوضاع الاجتماعية، مما يعنى العودة إلى منهج الله من خلال التغيير الذاتي(97). وفي التوجيه النبوي يطرح الرسول ﷺ ثلاث طرق للإصلاح، وذلك في قوله: (ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأولي الأمر، ولزوم الجماعة)(98). وقد جعل الرسول الكريم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد الوسائل الإصلاحية الدائمة والضابطة لحركة المجتمع. ولذا يقول الرسول ﷺ: (يا أيها الناس مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا الله فلا يستجيب لكم، وقبل أن تستغفروا فلا يغفر لكم... إن الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى لما تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لعنهم الله على لسان أنبيائهم وعمهم البلاء)(99).

وقد جمع القرآن الكريم عناصر الإصلاح الاجتماعي في آية واحدة قيل إنها أجمع أية في القرآن*. وتضمنت ثلاثة أوامر وثلاثة نواه تشكل في مجمعها

---

(96) أخرجه أبو داود والحاكم والطبراني والبيهقي.

(97) المنتدى الإسلامي: **التجديد في الإسلام**، لندن: كتاب المنتدى الإسلامي، ط2، 1990م، ج1، ص42.

(98) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ج5 ص 183، وصححه الحافظ ابن حجر.

(99) أخرجه أحمد والبيهقي من حديث عائشة رضي الله عنها، ورواه ابن ماجه وابن حيان في صحيحه.

(*) ذكر ابن كثير أن الشعبي روى عن شتير بن شكل قوله: سمعت ابن مسعود يقول إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النّحل: 90] انظر: ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، مرجع سابق، مج2، تفسير سورة النحل: 90، ص759.

أساس المعاملات الاجتماعية وتحدد قواعد العلاقات الإنسانية في مجالات الحياةكافة. حيث يأمر الله بالقسط والموازنة، والإحسان أو الفضل وهو أعظم درجة من العدل، كما يأمر بصلة الأرحام وتوثيق الروابط الأسرية، ثم ينهى عن المحرمات والمنكرات الظاهرة والباطنة، كما ينهى عن العدوان على الناس[100]. وتلك بلا شك الأسس العامة التي يجب أن تقوم عليها فلسفة الإصلاح والتغيير في المجتمع المسلم.

وطبقا للمبادئ التي أقرها القرآن الكريم يتم التغير الاجتماعي في إطار عدة ضوابط أهمها:

* أن يؤدي إلى الأمن والسلام الاجتماعي، فإذا أنتج التطور الحضاري تهديداً للسلام العالمي فلا يدخل في نطاق الارتقاء طبقاً للرؤية القرآنية. حيث جعل الله الأمن من شروط التمكين للمؤمنين في الأرض. ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النُّور: 55]. وعلى ذلك لا يقاس التقدم الاجتماعي بالنمو الاقتصادي والتكنولوجي كمؤشر حاسم، بل يقاس بما يتحقق من أمن اجتماعي وسلام بين الشعوب.

* أن يكون التغير الاجتماعي متوازناً، يراعى الجوانب المادية والروحية دون أن يطغى جانب على آخر، وعلى ذلك يشترط في التغير أن يكون شاملاً دون تجزئة، وأن يكون في مستوياته وأنظمه وأنساقه جميعها متفقاً مع المنهج الإلهي*.

* يشترط في التغير الاجتماعي أن يتم في إطار نظرة إنسانية للشعوب، تقوم على العدل بين البشر باختلاف أنواعهم وأجناسهم. وتلك القاعدة شكلت أهم ركائز الإصلاح الاجتماعي الإسلامي**.

---

(100) المرجع السابق، ص758-759.

(*) ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البَقَرَة: 85].

(**) يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: 13]. وروى عن الرسول ﷺ قوله: (ليس لعربي على عجمي فضل ولا لأسود على أحمر فضل ولا أحمر على أسود فضل إلا بتقوى الله). رواه الطبراني في الكبير. =

2 - محاور التحليل وعناصره

حددت الدراسة ثلاثة محاور لتحليل الأطر الفكرية لبعض المفكرين الإسلاميين في العصر الحديث كما يلي:

1. مدى التزام كل تيار بالتعبير عن روح الإسلام طبقاً لتأويله الخاص للنصوص القرآنية المتعلقة بالتغير الاجتماعي.
2. مدى تأثير الواقع الاجتماعي والسياسي الذي أحاط بكل مفكر في تشكيل تصوراته الخاصة حول التغير الاجتماعي.
3. مدى تأثر كل مفكر بروح العصر وانعكاس ذلك على رؤيته الكلية للتغير الاجتماعي.

وعلى ذلك تم تحديد عناصر التحليل كالآتي:

1. تحليل الملامح العامة لكل تيار من التيارات التي ركزت عليها الدراسة.
2. تحديد الملامح الشخصية والفكرية للمفكرين الذين وقع عليهم الاختيار كنماذج تعبر عن فكر التيارات الأربعة (التيار التجديدي العقلي، تيار التغير الثوري، التيار التحرري الإسلامي، التيار الشيعي الحديث).
3. الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية التي أثرت في رؤية مفكري التيارات الأربعة.
4. أهم القضايا التي نالت اهتمام مفكري التيارات الأربعة.
5. موقف الفكر الإسلامي الحديث من الغرب، ورؤيته للاتجاهات العصرية.
6. تفسير مفهوم التغير الاجتماعي من حيث أبعاده ومتغيراته وأنماطه وأساليبه، كما تظهر في رؤية كل تيار، وكما عبر عنها مفكرو التيارات الأربعة.

= انظر: الخطيب، محمد خليل. **خطب المصطفى** ﷺ، القاهرة: دار الاعتصام، 1983م، ص108.

ثالثاً : أسلوب التحليل وأدواته

تعد هذه الدراسة من الدراسات التحليلية التي تسعى إلى التعرف على الوثائق الفكرية الخاصة بتيارات الفكر الإسلامي في العصر الحديث، وتحليل هذه الوثائق وتفسيرها، والمقارنة بين الأطروحات التي قدمتها التيارات الفكرية الإسلامية المختلفة، بهدف الوصول إلى القضايا الأساسية التي تشكل بناء التصور الإسلامي لمفهوم التغير الاجتماعي. ولذلك استعانت الباحثة بأسلوب البحث المكتبي والوثائقي.

وفي إطار ذلك تم تقسيم مصادر الوثائق التي سيتم تحليلها إلى قسمين هما :

1 - مصادر أولية :

وتشمل المصادر الأولية العناصر الآتية :

- المذكرات والسير الذاتية -إن وجدت- للمفكرين الإسلاميين الذين شملتهم الدراسة للحصول على الأبعاد الخاصة بشخصية كل مفكر والتعرف على الظروف الاجتماعية والسياسية السائدة في عصره.
- كتابات المفكرين الإسلاميين التي تعبر عن تصوراتهم حول قضية التغير الاجتماعي.

2 - مصادر ثانوية :

وتنقسم المصادر الثانوية إلى نوعين :

- الكتابات العربية التي كتبها باحثون ومفكرون، سواء ممن عاصروا المفكرين الإسلاميين أو ممن جاءوا بعدهم، والتي تناولت شخصيات المفكرين الإسلاميين أو حللت أعمالهم المختلفة، أو تلك التي ناقشت الفكر الإسلامي بوجه عام.
- الكتابات الغربية التي كتبها باحثون ومفكرون غربيون وتناولت أعمال المفكرين الإسلاميين -موضوع البحث- أو تلك التي حاولت تحليل الفكر الاجتماعي الإسلامي وتصوراته.

وقد ركزت الدراسة على مجموعة من المفكرين هم المفكرون الأبرز في التاريخ الحديث، أو هم رؤوس التيارات الإسلامية في العصر الحديث، علاوة على أنه لا جدوى من البحث بشكل حصري، لذلك تم اختيار ستة مفكرين هم: السيد جمال الدين الأفغاني، الشيخ محمد عبده، الشيخ رشيد رضا، الشيخ حسن البنا، المفكر عباس محمود العقاد، والمفكر علي شريعتي.

وقد وقع الاختيار على هؤلاء المفكرين كممثلين للتيارات الرئيسية التي شهدتها الساحة الفكرية خلال قرن من الزمان يبدأ من منتصف السبعينيات في القرن التاسع عشر وحتى منتصف السبعينيات من القرن العشرين تقريباً. وحرصت الباحثة عند الاختيار أن يكون كل مفكر ممثلاً للتيار الفكري الذي ينتمي إليه بدرجة كبيرة، مع مراعاة الشروط التالية:

1. أن تكون الفترة التي عاشها المفكر قد أتاحت له تقديم أعمال كافية بالقدر الذي يسمح بتشكيل تصور متكامل حول قضية التغير الاجتماعي، بحيث يعطى مجالاً أوسع للتحليل.
2. أن يكون للمفكر تأثير واضح في تشكيل التيار أو المدرسة الفكرية التي ينتمي إليها.
3. أن يكون لأفكاره تأثير بارز على الواقع الاجتماعي والسياسي، وأن تكون له بصمة مميزة على حركة الإصلاح والتجديد الفكري.
4. أن تكون أعماله قد حظيت باهتمام عدد كبير من الباحثين والمحللين في مختلف المذاهب الفكرية، مما يتيح قدراً أوسع من الرؤى النقدية لأفكاره وتصوراته حول قضية التغير الاجتماعي.

رابعاً: المحددات الزمنية للدراسة

تتناول هذه الدراسة بشكل أساس مفهوم التغير الاجتماعي في الفكر الاجتماعي الإسلامي في العصر الحديث، وقد تم تحديد الفترة الزمنية للدراسة، بدءاً من السبعينيات في القرن التاسع عشر وحتى منتصف السبعينيات في القرن العشرين. وذلك نظراً لعدة اعتبارات يمكن توضيحها فيما يلي:

1. إن العصر الحديث في العالم الإسلامي قد شهد تحولات اجتماعية وثقافية وسياسية حادة، بعد أكثر من ثلاثة قرون من الجمود. وكان أبرز مظاهر هذه التحولات يتمثل في ما أحدثته الحملة الفرنسية على مصر، وما تلاها من تحول في نظام الحكم على يد محمد على باشا، مما شكل اختراقاً عظيماً لحالة الركود التي خضعت لها الأمم الشرقية جراء الفتح العثماني الذي حال دون اتصال الأمة الإسلامية بالحضارات الأجنبية عموماً. والحضارة الأوروبية الناهضة خصوصاً[101]. وعلى ذلك كان تشكيل الدولة الحديثة على النمط الأوروبي في عهد محمد علي أحد المظاهر البارزة ضمن مجموعة من التحولات الاجتماعية والثقافية التي شكلت تغيراً فاصلاً في واقع المجتمع التقليدي في مصر والعالم الإسلامي كله الذي لم يدخل عليه أي تغيير جذري خلال فترة الحكم العثماني الذي دام زهاء ثلاثة قرون متوالية[102].

2. إن أهم التغيرات العالمية التي يمكن ملاحظتها في العصر الحديث تتمثل في اتساع الفجوة الحضارية بين الشرق والغرب. حيث تفوقت أوروبا على العالم الإسلامي الذي وقف مكانه في حين مضت أوروبا في سبيلها قدماً نحو النهضة[103]. مما أعطى انطباعاً في أوساط النخبة المثقفة بأن تحديث الشرق ينبغي أن يقوم على مركب ثقافي وحضاري جديد مصدره أوروبا، ومن ثم كان للمبعوثين المصريين الذين عادوا من إيطاليا وفرنسا دوراً مهماً في نقل عدد من مظاهر الثقافة الغربية إلى الشرق[104]. وكان لهذا الواقع التغريبي، في الحقيقة، تأثير كبير في بدء اليقظة الإسلامية التي عبرت عن رد الفعل تجاه هذا التغريب، وعلى ذلك تبدو المرحلة الأولى من العصر الحديث مرحلة فاصلة من جميع الأوجه.

---

(101) غربال، شفيق. "مقدمة" حسين مؤنس. **الشرق الإسلامي في العصر الحديث**، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ط2، 1938م، د- هـ.

(102) المرجع السابق، ص32.

(103) المرجع السابق، ص32.

(104) علي، سعيد إسماعيل. **تاريخ الفكر التربوي في مصر الحديثة**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، 1989م، ص60-61.

3. إن هذه الفترة التاريخية كانت من أهم فترات التاريخ العربي الحديث، وأغناها بالأحداث المتباينة، حيث أحدثت مظاهر الضعف والفساد والانحلال التي أصابت الأمة الإسلامية ردود فعل قوية عند المفكرين العرب، وكانت أقوى الحركات الفكرية عندهم وأكثرها أصالة هي الحركات الدينية. فكانت الدعوة الوهابية أول رد فعل ديني على مفاسد المجتمع في العصر الحديث، وشكلت مصدر إلهام للحركات والدعوات الإسلامية في القرن التاسع عشر، فقامت ثورة شريعة الله وسيد أحمد ضد الحكم المغولي في الهند، وظهرت الدعوة السنوسية في شمال أفريقيا، والحركة المهدية في السودان[105]. ومن ثم مهدت تلك الحركات لنشأة اليقظة الفكرية المتمثلة في تيار الجامعة الإسلامية، وهو التيار الذي قاده جمال الدين الأفغاني وهو التّيّار الذي يعدّ البداية الحقيقية لتطور الفكر الإسلامي الحديث.

4. إن العصر الحديث ظهرت فيه حركة فكرية فارقة، ارتبطت بتحول مظاهر الكفاح الإسلامي الذي استمر لقرون طويلة، منذ سقوط بغداد على يد التتار عام 656هـ، بهدف مقاومة الاعتداء الخارجي من أجل البقاء والسلامة الذاتية، لا بهدف نشر الدعوة كما كان في عهد الرعيل الأول من المسلمين. حتى جاء جمال الدين الأفغاني فدعا إلى الكفاح من أجل مقاومة الاعتداء الخارجي والضعف الداخلي وهو الأمر الذي لم يسبقه إليه أحد سوى شيخ الإسلام ابن تيمية زعيم المقاومة الخارجية والداخلية، وبذلك كانت حركة اليقظة الإسلامية الحديثة بعد الأفغاني حركة سياسية أكثر منها دينية، مع أنها قامت على الإسلام واستندت إليه في خطواتها وغايتها[106].

---

(105) المحافظة، علي. **الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، 1798-1914 (الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية)**، بيروت، الأهلية للنشر، ط2، 1978م، ص37-39.

(106) انظر: البهي، محمد. **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي**، القاهرة: مكتبة وهبة، ط1، 1985م، ص51-52.

5. إن تطور حركة اليقظة الإسلامية في العصر الحديث أدى إلى تغيير الملامح الفكرية في الشرق الإسلامي. حيث اتجهت الحركة الفكرية الإسلامية الحديثة إلى التجديد اللغوي، بالخروج من القوالب اللغوية التقليدية إلى استخدام أسلوب بسيط وسهل، ربما بهدف جعل الفكر في متناول الجماهير العريضة. ومن ناحية أخرى اتجهت هذه الحركة إلى الانفتاح على الفكر الغربي الحديث، بعد أن كانت الحركة الإسلامية المبكرة ذات نزعة سلفية فحسب، فصارت تيارات الفكر الإسلامي المختلفة تتحاور مع التصورات النظرية الغربية وتتفاعل مع الفكر العالمي. ومن ثم تميز الفكر الإسلامي في العصر الحديث بتطوير مصادره الفكرية والمعرفية اعتماداً على تجديد التراث من جهة، والانفتاح على العلوم العصرية من جهة أخرى، مما يزيد من أهمية دراسة هذا الفكر.

6. ولئن كانت اليقظة الإسلامية قد بدأت بالبحث عن الذات، محاولة تجاوز الواقع بما فيه من الضعف الداخلي والتخلف الحضاري الذي كرسه العثمانيون، ومواجهة للخطر الاستعماري الخارجي، ومن ثم بلورت فكر الأمة الساعي لتغيير واقعها كي تواجه أعداءها وتستأنف مسيرة أسلافها الحضارية[107]، فالملاحظ أنها نجحت في تجاوز عصر الجمود الفكري، وقادت حركة الكفاح بهدف البقاء، وحافظت على العقيدة والهوية الثقافية للأمة، حتى استطاعت أن تدفع الأمة نحو التحرر من الاستعمار العسكري، إلا أنها عجزت عن تحقيق الهدف الأساسي المتمثل في التحدي الحضاري لتجاوز الواقع وتغيير المجتمع الإسلامي إلى صورة أفضل.

وكل هذا يستدعي دراسة وتحليل الأطروحات التي توالت، خلال قرن من الزمان، بواسطة عدد من المفكرين في مختلف التيارات الإسلامية، لعلنا نستوضح العوامل التي حالت دون تحول هذه الأطروحات النظرية إلى حركة تنموية مؤثرة تقود عملية التغير الاجتماعي وتنقل الأمة إلى عصر جديد.

---

(107) عمارة، محمد. **تيارات اليقظة الإسلامية الحديثة**، القاهرة: كتاب الهلال، دار الهلال، أغسطس 1982م، ص18-21.